I

الظلام

الجمعة الحزينة

ينزل الستار

نكتة الفرنساوية

الباشا والمصرلية

زبانية عتاة

ولدى

مصر والحضارة الغربية

الجمعة الحزينة

كانت نهاية عام ٩٢٢ من الهجرة يوم جمعة . وختم أئمة المساجد بمصر والقاهرة خطبهم بهذا الدعاء : « انصر اللهم السلطان ابن السلطان ، ملك البرين والبحرين ، وكاسر الجيشين ، وسلطان العراقين ، وإمام الحرمين الشريفين ، الملك المظفر سليم شاه ، اللهم انصره نصراً عزيزاً ، وافتح له فتحاً مبيناً ، يا مالك الدنيا والآخرة . يا رب العالمين » .

وفى شهر جمادى الآخرة من سنة ٩٢٣ [١٥١٧ م] ، جلس كاسر الجيشين ، وسلطان العراقين ، فى وطاقه بالروضة تجاه المقياس ، يقضى الأسابيع الأخيرة من إقامته بالديار المصرية فى لعب الشطرنج مع أبطال اللعبة ، من أمثال النصر محمد بن الوردى ، والشهابى أحمد الإسكندرانى .

كانت أيام هناء ورفاهية ، فقد استطاع ابن بايزيد فى نصف عام أن يضيف إلى ملك آل عثمان إمبراطورية بالتمام والكمال ، هى تلك الدولة الكبرى التى أقامها المماليك فى مصر منذ ثلاثة قرون ، والتى امتدت من اليمن جنوباً ، حتى نهر الفرات وجبال طوروس شمالا ، وعلى شاطئ بحر الروم من خليج الإسكندرونة حتى بلاد برقة ، وعلى ضفاف النيل حتى أعالى النوبة .

تفرج سليم على الأهرام وتعجب من بنائها ، وغسل وجهه من ماء بئر البلسان بالمطرية ؛ وما أظنه عنى بالمسلة ، أو بقصة استراحة يوسف النجار ومريم العذراء وطفلها فى ظلال الجميزة الألفية . وسافر إلى الإسكندرية ليأمر بحبس ألفين من المصريين من رجال الحرف والصناعات وكبار المباشرين والتجار إلى جانب من القضاة والأعيان والأمراء والمقدمين ، حبسهم فى أبراج الإسكندرية وخاناتها ، انتظاراً لقيام المراكب بهم إلى القسطنطينية . وكان قد نزع من بيوت مصر والقاهرة أثمن ما فيها من منقول وثابت ، حتى الأخشاب والبلاط والرخام والأسقف المُزَيَّكة والأعمدة السماقية بإيوان القلعة . ومجموعة المصاحف والمخطوطات والمشاكى والكراسى النحاسية والمشربيات والشمعدانات والمنابر .

هذه هى الحرب المجزية . وذلكم كان الغزو الأكبر : أن يعود سليم وأجناده العثمانية محملين بالأسلاب الغالية . نماذج أصيلة لحضارة مشرقة ، حتى ليصبح أقل عسكره أغنى من أى أمير من أمراء المماليك . أولئك المتغطرسين المنفوخين . إنه ليذكر رسالته إلى كبيرهم السلطان طومان باى : « أما بعد ، فإن الله أوحى إلى بأن أملك البلاد شرقاً وغرباً ، كما ملكها الإسكندر ذو القرنين ، وإنك لمملوك تباع وتشرى ، ولا تصلح لك ولاية . وأنا ابن ملك إلى عشرين جداً » .

جلس الخنكار سليم شاه فى وطاقه ، يحيط به رهط من المرد ، مع بعض أمرائه الإنكشارية والإصباحية يتسامرون ويتحارفون ، وقد مدت بين أيديهم الأسمطة يتخاطفونها كالذئاب ، وافتضت برسمهم الدنان ، ثم نصبت لهم شاشة بيضاء فى صدر الإيوان ، وقف خلفها واحد من المخايلين ، بعد أن أطفأ الأنوار ، إلا مصباحاً كبيراً خلف الشاشة ، تلعب عليها ظلال تصاوير من الورق . ترسم رحبة باب زويلة ، تحيط بها أجناد غرباء . ويخرج من البوابة رجل يركب أكديشاً ، وربما جملا ، ويترجل مرفوع الرأس ، طويل اللحية ، يتسلمه المشاعلية ليضعوا الحبل فى عنقه ، ويشدوا الحبل المعلق بقاعدة برج البوابة ، فينقطع الحبل بالمشنوق . ويعود المشاعلية إلى وضع الخية مرة أخرى حول عنق الرجل ، وينقطع الحبل مرة ثانية ، وفى الثالثة يتدلى الرجل وتستدير لحيته إلى أعلى ، وتلعب سيقانه فى الهواء هنيهة ، ثم يسكن حراكه . والمحبظ يصطحب مخايلته بأزجال وفكاهات يضحك الصبيان المرد من فحشها وسلاطتها ، ويضحك العثمانيون دون أن يفهموا حرفاً . والسلطان منشرح الصدر لهذه المخايلة . فإذا مثل المحبظ بين أيديه ، أنعم عليه بثمانين ديناراً ، وبقفطان من المخمل المذهب . وهو يقول له : « تعال معنا إلى إسطنبول حتى يتفرج ابنى على ذلك » .

بماذا انشرح صدر الخنكار سليم شاه ؟ وعلام الخلعة والدنانير للمخايل السفيه الفاحش ؟ وفيم يطلب إليه السفر إلى إسطنبول حتى « يتفرج ابنه على ذلك » ؟ يتفرج على عملية شنق ، والشنق أهون ما تعرفه العثمانية من ضروب الإعدام ؟ علام يتفرج ابن سليم ، وقد جاء قومه إلى مصر بضروب من القصاص والتعذيب فاقت ما جرت به عادة المماليك ، مع ما كان عليه هؤلاء من القسوة والوحشية ،

فأضيف الخازوق بالطريقة الرأسية ، وعلى طريقة شك الباذنجان ، إلى التكليب والتوسيط وتهشيم الرأس بالطبر ، وقطع الرءوس ونشرها على الحبال ، ورشقها فى المدارى والرماح ، أو فوق الأسوار .

طاب سعد السفاح العثمانى بمنظر انتصاره على عدوه طومان باى آخر سلاطين المماليك . وكان الأشرف طومان باى عدوًّا عنيداً ، وصنو مقاومة لا تعرف فى الحرب هوادة . تركه السلطان قانصوه الغورى نائباً للغيبة ، عندما ذهب إلى شمالى حلب ليلاقى ابن عثمان على مرج دابق ، وليموت هناك بخلط فالج ، وسط عسكره المدحور .

وكان طومان باى فى أربعيناته راغباً عن سلطنة مصر ، قبلها بإلحاح العارف بالله الشيخ أبى السعود ، وقد اقتاده إليه ، بتلّ الجارح عند مصر العتيقة، مقدمو الألوف ، وأمراء الطبلخانات والعشراوات . فأحضر لهم الشيخ المصرى مصحفاً يحلفون عليه يمين الإخلاص للدودار طومان باى إذا سلطنوه ، و « ألا يخونوه ولا يغدروه ، وألا يخامروا عليه » . ثم حلفهم ألا يعودوا إلى ظلم الرعايا ، وألا يشوشوا على أحد بغير طريق شرعى ، وأن يبطلوا ما أحدث الغورى من المظالم ، وأن يجروا الأمور على ما كانت عليه فى أيام الأشرف قايتباى ، « فإن الله تعالى ما كسركم وأذلكم ، وسلط عليكم ابن عثمان ، إلا بدعاء الخلق عليكم فى البر والبحر » . فقال أمراء الجراكسة : « تبنا إلى الله تعالى عن الظلم من اليوم » .

ويظهر أنهم فسروا توبتهم عن الظلم بأن يتوبوا أيضاً عن الحرب — صنعتهم وحرفتهم — حتى لو كان دفاعاً عن رزقهم وإقطاعاتهم ! فهذا الأمير طقطباى حاجب الحجاب يقول ، إذ يأمره الأشرف طومان باى بالسفر لقتال ابن عثمان : « أنا عزمت على السفر إلى البحيرة ، وقد جعلتنى متحدثاً فى كشوفيتها » ويرد عليه السلطان : « الخروج إلى قتال ابن عثمان أوجب من الخروج إلى البحيرة » .

وعندما يطلب السلطان إلى الآخرين الخروج لملاقاة ابن عثمان، وينفق عليهم — لكل مملوك — ثلاثين ديناراً، وجامكية ثلاثة أشهر بعشرين ديناراً، يرمون بتلك النفقة فى وجهه ويقولون : « لا نسافر حتى نأخذ مائة دينار لكل مملوك ! » . ويصيح السلطان حانقاً : « هذا ابن أستاذكم سيدى محمد ابن السلطان الغورى، اسألوه

هل ترك أبوه شيئاً من المال ؟ ولقد أخذتم من الأشرف قانصوه الغورى ثلاثين ديناراً ولم تقاتلوا شيئاً ، وكسرتم السلطان وختنموه حتى قتل . اسمعوا ! إنى نازل عن السلطنة ، ومتوجه إلى مكة أو غيرها من البلاد . فولوا من تختارونه » .

ويرد المماليك الذين ربوا على الحرب ، والذين يطالبهم السلطان بالقتال دفاعاً عن بلادهم ورزقهم وإقطاعهم : « إن كنت تعمل سلطاناً فامش على طريقة من تقدمك من الملوك ، وإن رحت فلعنة الله عليك ، وغيرك يجئ ويعمل سلطاناً » .

أولئك هم المماليك الذين حلفوا بين يدى العارف بالله أبى السعود الجارحى يمين الولاء والإخلاص لسلطانهم ، والذين تابوا إلى الله تعالى !

وتقوم ضجة كبيرة فى الرميلة ، فيشاع أن عسكر ابن عثمان وصلوا إلى قرب المطرية ، فيصرخ السلطان : « كم قلنا لكم اخرجوا للتجريدة ، وأنتم لا ترضون أن تسافروا ! » .

ثم تكذب الإشاعة ، إنما الصحيح أن ابن عثمان زاحف على مصر ، وأنه بلغ قطيا ، ودخل الشرقية ، واقترب من بركة الحاج ومعسكر الريدانية . فيرضى الأمراء بتفرقة خمسة وعشرين ديناراً للمملوك ، وثمن الأضحية على العادة ، فنحن فى شهر ذى الحجة .

* * *

ماذا تنتظر من هؤلاء الأجناد المرتزقة ، لا يعرفون حرمة لمصر ، ولا لأى بلد آخر ، ولا قرابة تجمعهم أكثر من أن يكونوا قرانصة ، أو من جلبان أستاذهم السلطان ، جمعهم الياسرجى الذى باعهم فى « دكة المماليك » بالقرب من باب زويلة؟

ما أشبههم بالمغاربة الذين استدعاهم السلطان إلى القلعة ، وطالبهم أن يجندوا من بينهم ألف إنسان يخرجون فى التجريدة لملاقاة ابن عثمان ، وإذا بهم يرفضون بحجة أنهم لا يقاتلون إلا الإفرنج ، وأنهم لا يقاتلون مسلمين ، ويضيفون « ونحن ما لنا عادة نخرج مع العسكر » .

هذه عدة مصر لملاقاة السلطان العثمانى ، وعساكره كالجراد المنتشر ، ومدفعيته تعتمد على أحدث ما كان يصنع منها فى ذلك الزمان . أى أمل فى فوز الأجناد

الجراكسة . وهذا روحهم ؟ وكيف تدفع مصر عداتها . وأبناؤها لا يعرفون من أمر الحرابة شيئاً ؟ نسوا بمضى الزمن صنعة الجندية ، منذ غزاهم الفرس ، بل قبل ذلك فى أواخر عهد الأسرات !

غزاتهم لا يريدون منهم إلا أن يظلوا البقرة الحلوب . فهذا الإمبراطور الرومانى طباريوس يكتب لعامله : « أرسلتك لتجز صوف الغنم . لا لتسلخ جلده » . وهذا الخليفة الراشد يفرح بزيادة الخراج على يد الوالى الذى أرسله . بعد إقالة عمرو بن العاص ، وينادى على فاتح مصر ليقول له : « لقد درت اللقحة بعدك يا عمرو » . فيجيبه القائد الكبير القلب : « نعم ، ولكن أجاعت أولادها ! » .

نحن الفرس ، نحن المقدونيين . نحن الرومان ، نحن الروم . نحن العرب ، المغاربة . الكرد ، أبناء فرغانة وكردستان ، نتوكل بأمر الحرب والضرب ، ونتولى عنكم أيها المصريون صناعة الحرب . لأن صناعتكم يا أهل مصر هى إحياء موات الأرض . وصناعتنا القتل والنهب والسلب ، والكرّ والفرّ والدفاع والغزو . تحرثون وتبذرون وتحصدون ، ونخرب وندمر ونسطو . حرفتكم بناء القصور والمعابد والمدارس والمساجد والخوانق والتّرب ، ونسج الحرير والكتان ، والتكفيت والتذهيب والنقش ، وحرفتنا الحكم ، والظلم والاستيلاء ؛ صناعتكم — يا أولاد مصر — هى الحضارة والتعمير ، بس !

ولم يتجهز ابن عثمان لغزو مصر بأسلحة القتال العلنى وحدها . بل ضم إليه فى السر جماعة من المماليك الخونة تآمروا على السلطان الغورى من أمثال خاير بك الجركسى . وجان بردى الغزالى ، ويونس العادلى ، والسمرقندى . وقد كوفئ خاير بك — أو خاين بك على لسان المصريين — بالولاية على مصر ، بعد استتباب الأمر لأولاد عثمان . كما تولى جان بردى أمر بلاد الشام . ويعيش خاير بك سوط عذاب على المصريين حتى وفاته : يشنق ، ويوسط ، ويخوزق ، ويكلّب ، ويقطع الأيدى ، ويجدع الأنوف بجريرة وبغير جريرة ! أما جان بردى الرجل القلق الطموح ، فلم تبلغه خيانته إلى أرفع مما بلغه أيام أستاذه وسلطانه ، فراح يستقل بالشام ، وحاربه ابن عثمان وهزمه . وانتهى الغزالى برأسه مرشوقاً بطرف رمح . وتسعى العدالة حثيثاً إلى يونس العادلى والسمرقندى ، فيحمل رأساهما فى

علبة إلى القاهرة قبل أن تطأ الإنكشارية والإصباحية أرضها الطاهرة .

هؤلاء الخونة وأمثالهم رسموا الطريق لابن عثمان . وكشفوا له عن أسرار العساكر المصرية . ومهدوا للغزو منذ خرج الخنكار سليم لمواجهة الأشرف قانصوه الغورى فى مرج دابق .

كان ذلك يوم أحد ، فى الخامس والعشرين من شهر رجب . حين ركب السلطان الغورى . الذى أوفى على السبعين ، بتخفيفة صغيرة وملوطة . وعلى كتفه طبر ، وحوله أربعون مصحفاً فى أكياس حرير أصفر يحملها جماعة من الأشراف على رءوسهم ، ومن بينهم مصحف بخط سيدنا عثمان بن عفان ، وجماعة من أرباب الطرق الصوفية . وكان الصنجق السلطانى خلفه بنحو عشرين ذراعاً . وبرز أول من برز إلى القتال سودون العجمى أتابك العسكر ، ومعه ملك الأمراء سيباى نائب الشام ، ثم المماليك القرانصة دون الجلبان . فهزموا عسكر ابن عثمان هزيمة هائلة . وأخذوا منهم سبعة سناجق . وغنموا المكاحل التى كانت على العجل ، وأسروا رماة البندق . وفى رواية قائد عثمانى فى جيش سليم أن هجوم المماليك الأول كان هجوماً ساحقاً ، « وكانوا يهجمون بأفراسهم ، ويصيبون ، ثم يستديرون فى خفة ، فلا يلحق بهم لاحق . ومع أن جنودنا الإصباحية لم يكونوا أقل شجاعة منهم ، فإن كرّهم لم يكن فى سرعة أولئك . ولا فى حسن دربتهم : أما الإنكشارية رماة البندق فقد أضاعوا على المماليك تفوقهم ، وذلك بأن ركزوا طلقاتهم على جباه الخيل ، فما إن يسقط المملوك عن فرسه حتى يفقد قوته ، ويتكعبل فى رمحه الطويل الثقيل . »

ويقول إبن إياس بأن ابن عثمان هم بالهرب أو طلب الأمان . ولكن الخونة سعوا بالفتنة بين المماليك القرانصة والمماليك الجلبان . وأفهموا أولئك بأن الأشرف قانصوه الغورى ضنين بمماليكه الجلبان . فما عمّ القرانصة أن انحلت عزائمهم عن القتال ، وسقط الأتابكى سودون العجمى صريعاً . يتبعه ملك الأمراء سيباى نائب الشام . وتنهزم الميمنة وتتقهقر الميسرة بقيادة خاير بك نائب حلب المتآمر على السلطان .

أما الضابط العثمانى فيقول فى مذكراته : « ويهرب خاير بك وغزالى بك ،

من قواد السلطان قانصوه لينحازوا ورجالهم إلينا . وغيرت هذه الخيانة شكل الموقعة ، وكانت أساس انتصارنا . »

وفى رواية ابن إياس أن السلطان الغورى صار واقفاً تحت الصنجق فى نفر قليل وهو ينادى : « يا أغوات هذا وقت النجدة » ، فلم يسمع له أحد قولا ، وصاروا ينسحبون من حوله ، وهو يقول لأرباب الطرق : « إدعوا الله بالنصر ، فهذا يومكم » ؛ وصار لا يجد له معيناً ولا ناصراً ، وانطلقت فى قلبه جمرة نار لا تطفأ ، وجاءه الأمير تمر الزردكاش يقول — وقد أنزل الصنجق السلطانى وطواه وأخفاه : « يا مولانا السلطان ، عسكر ابن عثمان قد أدركنا فانج بنفسك » . فلم يجب السلطان ، وقد أصابه خلط فالج أبطل شقه وأرخى فمه ، فأشار بطاب ماء شرب منه قليلا ، ولوى عنان فرسه ومشى به خطوتين . ثم انقلب عنه إلى الأرض ، وفقئت مرارته ، وطلع من حلقه دم أحمر ، وأقام نحو درجة ثم طلعت روحه من شدة القهر ، ولم يعلم له خبر بعد الموقعة . ولا وقف له على أثر ، فكأن الأرض ابتلعته فى الحال ، كما ضاع معه مصحف سيدنا عثمان ، وديست أعلام أرباب الطرق ، وصناجق الأمراء .

أما الرواية العثمانية فتقول : « وأطبق السلطان محنقاً غاضباً ، والسيف بيده ، يضرب الإصباحية يميناً وشمالا ، فيقتل منهم خلقاً كثيراً ، وينادى على السلطان سليم ، ويزعق طالباً إليه أن يتقدم ، وسليم مشغول بقيادة إنكشاريته فى مكان آخر . ويفقد كبير المماليك [أى السلطان] اتزانه ، وتخور قواه ، كما يسقط فرسه تحته إعياء ، ومثخناً بالجراح . ويموت كبير المماليك لغباً وحنقاً ، وسط المعركة . وتحتم المدفعية العثمانية أمر المعركة ، وقد أسفرت عن أحد عشر ألف مملوك تغطى أجسادهم الأرض ؛ ولم تكلفنا الموقعة أكثر من ألفى قتيل » (؟)

* * *

لم يكتف سليم شاه بكثرة أجناده ، وقوة مكاحيله ، وفرسانه الذين يحملون رماحاً بكلاليب يخطفون بها الفارس عن فرسه ويلقونه على الأرض ، ولم يرض بعيونه وجواسيسه من خونة المماليك ، بل يحاول قتل الأشرف طومان باى سلطان مصر ، بعد الغورى ، وهو فى وطاقه بالريدانية يتأهب لملاقاة ابن عثمان . فقد ضبطت

بالوطاق امرأة فدائية تلبس زنطاً أحمر ، وعلى وجهها لثام ، وتحت ثيابها زردية ، وهى متحملة بخنجر كبير تحت ثيابها .

تلك هى المصائب تترى على الديار المصرية منذ خرج السلطان الغورى إلى أقاصى مملكته ليوقف زحف ابن عثمان شمالىّ حلب ، حتى وطئت جنود سليم شاه أرض مصر .

لم يعرف اليأس سبيلا إلى قلب الرجل الكبير طومان باى . أقام التحصينات من الجبل الأحمر حتى غيط المطرية : خندقاً ومكاحل عليها تساتير ، وأكواماً من القش أقام فوقها الصناجق . بل قد أراد أن يخرج للملاقاة ابن عثمان وجنوده عند أطراف الصحراء الشرقية ، من ناحية الأرض المنزرعة ، قبل أن يستريح السلطان العثمانى وجنوده عقب اختراقهم تلك الصحراء ، ولكن أمراءه ومماليكه — أصحاب النفقة والجامكية — كانوا مهدودى الحيل ، فاقدى العزيمة ، فآثروا الانتظار خلف تحصيناتهم حتى كبس عليهم سليم ، وزعق النفير فى الوطاق ، ودقت الكوسات والطبول حربيًّا ، وركب العسكر قاطبة ، وأقبلت أجناد ابن عثمان كالجراد المنتشر . فكانت بين الفريقين واقعة أشد من واقعة مرج دابق . وقتل من العثمانيين ما لا يحصى عدده ، ومن بينهم سنان باشا أكبر وزراء ابن عثمان ؛ حتى صارت الجثث مرمية على الأرض من سبيل علاّن إلى تربة الأمير يشبك الدوادار . وتدب الروح من جديد فى العثمانية ، ويجيئون من كل ناحية أفواجاً كأنهم قطع الغمام ، وينقسمون فرقتين : فرقة تجئ من تحت الجبل الأحمر ، وفرقة تهجم على وطاق الريدانية ، وطرشوا الأجناد المصرية بالبندق والرصاص . وكبسوا عليهم ، فلم تك إلا ساعة يسيرة حتى تمت الكسرة على عسكر المماليك . وثبت الأشرف طومان باى نحو عشرين درجة وهو يقاتل بنفسه مع نفر قليل من العبيد والرماة والمماليك السلحدارية ، فلما تكاثرت عليه العساكر العثمانية طوى الصنجق السلطانى وولى واختفى .

* * *

دخل العثمانيون القاهرة ، وطومان باى لا يريد أن يعترف بالهزيمة ، فإن النفس التى لا تعرف الذل قل أن تطاطئ رأسها لواقع الهوان .

هرب الأشرف طومان باى وجمع فلول أمرائه ، بعد أن نزل سليم بوطاقه عند بر بولاق ، وبعد أن تردد اسمه على منابر القاهرة فى يوم الجمعة آخر أيام سنة ٩٢٢ هجرية . وإذا بآخر سلاطين مصر يكبس بليل على ابن عثمان فى وطاقه ، بعد أن أطلق على الوطاق جمالا محملة بالدريس المشتعل . فاضطربت أحوال العثمانية ، وانضم العياق والزعر والحرافيش ببولاق إلى طومان باى يمدون له يد المساعدة . . . بالمقاليع والحجارة ! واستمر القتال ليلة الخميس وليلة الجمعة حتى يوم السبت الثامن من المحرم . وامتدت الموقعة على طول خط إلى الشرق من الخليج الناصرى ، من الناصرية حتى قناطر السباع ، إلى الصليبة ، فمسجد ابن طولون حتى الرميلة . واتخذ طومان باى جامع شيخون العمرى بالصليبة مركزاً لقيادة هذه الحرب الرهيبة .

ولو انتقلت شرارة واحدة من النار التى تضطرم فى قلب طومان باى إلى كل مماليكه لأزاحوا العثمانية عن القاهرة ، وثأروا ليومهم العصيب فى الريدانية .

ولكن الجند العثمانى يكسب اليوم ، ويختفى طومان باى . وسنسمع به مرة ثالثة فى البهنسا . وستجرى بينه وبين سليم مفاوضات ، يرفض فيها طومان باى أن يعترف لسليم بالزعامة ، ويعود الأشرف طومان باى إلى الشمال . ويتحدى ابن عثمان أن يخرج إليه فى بر الجيزة عند منوات . ولكن طومان باى ينهزم مرة أخرى ، ويهرب إلى الدلتا ، حيث ينزل ضيفاً على شيخ العرب حسن بن مرعى . وكان ابن مرعى هذا من أعز أصحاب السلطان ، وله عليه غاية الفضل والمساعدة ، من أيام السلطان الغورى .

ويحضر شيخ العرب مصحفاً شريفاً يحلف عليه ، هو وشكر ابن أخيه ، أن لا يخونا السلطان ، ولا يغدرا به ، ولا يدلسا عليه بشئ من الأشياء . ما أسرع ما تخرج المصاحف فى تلك الأزمنة الغادرة وما أكثر ما يلقى عليها من أيمان ! وقد استراح أخيراً مصحف سيدنا عثمان فى مرج دابق ، بعد أن تلقى ما تلقى من أيمان المماليك للسلطان القائم ، وبعد أن حنثوا ما حنثوا بأيمانهم !

فليغفر المصحف الشريف لأولاد مرعى ، ولغير أولاد مرعى ، فى هذه المرة — ولن تكون الأخيرة فى تاريخ مصر — فما إن ارتفع صياح الديكة فى نجع

شيخ العرب حتى كان أولاد مرعى قد أرسلوا يخبرون ابن عثمان بأن آخر سلاطين مصر وقع بين أيديهم ، ويحتاط الأعارب بضيفهم الكريم حتى يصل عسكر سليم شاه ويضعوه فى الحديد ، ويتوجهوا به إلى ابن عثمان فى وطاقه ببر إنبابة .

دخل الأسير لابساً ملابس العرب المعوارة ، على رأسه زنط وشاش ، وعلى بدنه ملوطة بأكمام طوال ، فقام له ابن عثمان ، لا احتراماً ، بل خفة ورهجاً ، وجعل يلقى على مسمعه كلاماً كله غلٌ وقسوة .

وفى رواية : تقدم طومان باى نحو السلطان ، وحياه باحترام ، فرد عليه وأمر له بالجلوس . وخيم السكوت على المجلس فترة . قطعها السلطان سليم بأن أخذ فى لوم طومان باى على قتل رسل الصلح الذين أنفذهم إليه فى البهنسا . فأجاب طومان باى بأن البيكوات الممالك فعلوا ذلك وهم فى حالة هياج . فسأله سليم عن رفضه الاعتراف بسلطنته ، هو ، سليم ، ابن الملوك إلى عشرين جداً . فأجاب طومان باى بأنه ملزم بالدفاع عن بلاد هو حاكمها ، ويجب عليه حمايتها ، ما استطاع إلى ذلك سبيلا . ثم أضاف : أما أنت ، فلا أدرى كيف تبرئ نفسك أمام الله من اعتدائك الجائر على بلادنا . فاندفع السلطان سليم يبرر مسلكه بأنه لم يباشر هذه الحرب إلا بعد فتاوى العلماء . وبعد مداخلات السلطان الغورى للاتفاق مع شاه العجم .

[وحقيقة هذه الفتاوى ذكرها فون هامر فى تاريخه الكبير للدولة العثمانية : أرسل السلطان سليم يستفتى على جمالى أفندى فى ثلاث مسائل :

الأولى : إذا نادى أحد سلاطين الإسلام بالجهاد لإبادة المارقين (أى العجم) ، فصادفته عوائق بسبب المساعدة التى يبذلها لهم سلطان آخر من سلاطين المسلمين ، فهل تبيح الشريعة الغراء لأولهما أن يقتل الثانى ويستولى على مملكته ؟

أجاب جمالى أفندى : من نصر كافراً فهو كافر .

الثانية : إذا كانت أمة من الأمم التى تدين بالإسلام (يقصد المصريين) تؤثر تزويج بناتها من الكفار (يعنى المماليك الجراكسة) ، بدلا من تزويجهم بالمسلمين ، فهل يجوز مقاتلة هذه الأمة ؟

أجاب جمالى أفندى : بلا مبالاة ولا مقاضاة .

الثالثة : إذا كانت أمة تنافق فى احتجاجها برفع كلمة الإسلام ، فتنقش آيات كريمة على الدراهم والدنانير ، مع علمها بأن النصارى واليهود يتداولونها هم وبقية الملاحدة ، فيدنسونها ويرتكبون أفظع الخطايا بحملها معهم إذا ذهبوا إلى محل الخلاء لقضاء حاجتهم ، فكيف ينبغى معاملة هذه الأمة ؟

أجاب المفتى العثمانى : إن هذه الأمة ، إذا رفضت الإقلاع عن ارتكاب هذا العار ، جاز إبادتها] .

واصل سليم حديثه : وعدا هذا فإن الملك لا يليق بمماليك بيعوا واشتروا .

أجاب طومان باى : لست بملوم ، يا سلطان الروم ، فالذنب كل الذنب على الخونة . وأشار إلى خاير بك وجان بردى الغزالى ، وكانا بالمجلس .

فقال سليم للجميع : ليس من العدل قتل رجل شهم صادق كهذا الرجل . وأمر أن يقيم فى وطاقه مكرماً ، حتى يستتب الأمر فى البلاد .

والقصة على هذا الوجه لا تستقيم ممّن يعرف سليم بن بايزيد ، ورهجه وشراسته . وتزعم القصة أن خاير بك وجان بردى خشيا عاقبة خيانتهما إذا بقى طومان باى على قيد الحياة . فأوعزا إلى بعض أشياعهما أن ينادوا بأعلى أصواتهم ، عند مرور السلطان سليم فى طريق ذهابه وإيابه ، قائلين : « الله ينصر السلطان طومان باى » . وكان هذا النذير كافياً لتغيير رأى السلطان العثمانى ، وإيغار صدره على طومان باى ، وصدور أمره بشنقه .

وصار أهل مصر والقاهرة بين مصدق ومكذب لخبر القبض على سلطانهم ، حتى رأوه بعيونهم يوم الاثنين الواحد والعشرين من ربيع الأول، وكان من أيام الخماسين . شاهدوه يركب أكديشاً ، وكانوا يحيونه على جانبي الطريق من بر إنبابة حتى بولاق . ثم شق موكب السلطان الأسير من المقس وباب البحر حتى بلغ سوق مرجوش ، وشق القاهرة حتى باب زويلة . وهناك ألقى نظرة على رحبة الباب ، ورفع بصره إلى قواعد الأبراج فعرف ما يراد به : رأى الإنكشارية والإصباحية ورماة النفط تحيط بالميدان . وعرف المشاعلية يرخون الحبال من قواعد البرج الغربى تحت مئذنة جامع السلطان المؤيد شيخ . فترجل عن الأكديش ،

وشمل الناس بنظره وقال : « اقرءوا لى الفاتحة ثلاث مرات » ، وبسط الناس أيديهم يرددون الفاتحة بصوت عال . ثم استدار السلطان الشهيد إلى رئيس المشاعلية وقال له : « اعمل شغلك » . فلما وضعوا الحبة فى عنقه ورفعوا الحبل انقطع به . وسقط الأشرف طومان باى على عتبة باب زويلة . وانصرم الحبل مرة ثانية ، وجاءت « التالتة تابتة » ، وارتفع آخر سلاطين المماليك معلقاً برقبته . مكشوف الرأس ، وعلى جسده شاياد من جوخ أحمر . فوقها ملوطة بيضاء بأكمام كبار ؛ وفى رجليه لباس من جوخ أزرق ، وخف أحمر . فلما قضى صرخ الناس عليه صرخة عظيمة . فقد كان طومان باى حسن الشكل . كريم الخلق . بطلا تصدى لقتال سليم بن بايزيد فى أسوأ الظروف ، وخزينة مصر خاوية . وثبت وقت الحرب بنفسه ، وفتك فى عسكر ابن عثمان ، وقتل منهم ما لا يحصى ؛ وكسرهم ثلاث مرات وهو فى نفر قليل من عسكره . ووقعت منه فى الحرب أمور لم تقع من الأبطال العناترة .

هذه نهاية سلطنة المماليك ، كل المماليك ، صالحية بحرية ، وجركسية برجية ، خاتمة السلطنة الكبرى التى أقامها بيبرس البندقدارى بسيفه وطبره على أجساد الصليبيين والتتار ، ودعمها الناصر محمد بن قلاوون بالعقل والسياسة .

عز لمولانا السلطان ، ثم شنق لمولانا السلطان !

هؤلاء الأجناد المغامرون ، بيعوا فى أسواق النخاسة صبياناً بدنانير معدودة ؛ واستطاعوا أن ينشئوا إمبراطورية مصرية تضم مصر والشام واليمن والحجاز وبرقة ، وأن يتمموا عمل صلاح الدين يوسف الأيوبى فيجهزوا على الصليبيين ، وأن يردوا جحافل التتار عن الشام ومصر . هؤلاء المماليك الغادرون السفاحون الطامحون ، الذين لا يؤمنون إلا بالسيف والنشاب والطبر والخيل ، أولئك المنافقون — يخشون الله فى العلن ، ويعصون أحكامه فيما بينهم — هؤلاء الزناة اللواطة المارقون ، كانوا مع ذلك حماة الحرمين وأصحاب كسوة الكعبة والمقام الشريف ، يوجهون المحمل المصرى والمحمل الشامى فى كل عام إلى الأرض المقدسة . كانوا الآمرين بكتابة المصاحف والختم بماء الذهب والزعفران . بناة المدارس والمساجد والخوانق وأضرحة الأولياء تقوم اليوم شاهداً على أن جذوة الفن ، ونخوة العمارة ، لم تنطفئ فى

نفوس منشئى الأهرام والمصاطب والمعابد والمقابر والكنائس والأديرة على مدى آلاف السنين .

جاءت نهايتهم شبيهة ببدايتهم عندما انهالت قباقيب مطلقة عز الدين إيبك التركمانى على رأس ضرتها شجرة الدر ، أول سلاطين المماليك ، وألقيت رمة « الجهة الصالحية ، ملكة المسلمين ، عصمة الدنيا والدين ، ذات الحجاب الجميل والستر الجليل ، والدة المرحوم خليل » ، ألقيت جثة شجرة الدر من فوق القلعة إلى خندقها تلغ فيها الكلاب ، وينزل الحرافيش إليها يسرقون تكة لباسها من الحرير الغالى وفى عقدتها نوافج المسك وخالص الدر .

دولة المماليك التى زينت أسوار القاهرة وأبوابها وأسبلتها برءوس القتلى وأجساد المكلبين ، وتركت أشلاء الموسطين فى مفارق الطرق ؛ الدولة التى كانت تخلع السلطان وترسله إلى سجن الدهيشة ، أو إلى قلعة الإسكندرية ثم ترسل خلفه من يخنقه فى الترسيم ، الدولة التى ندر أن يموت سلطان من سلاطينها فى فراشه موتاً طبيعياً ، يبدو أن التاريخ حتم أن تنتهى هذه النهاية الدرامية ، فيموت سلطان مصر معلقاً بباب زويلة ، كأنه شيخ منسر ، أو واحد من أهل الزغل فى المعاملة !

ويجىء أحد « المحبظين » أو « المغزلكين » أو « المخايلين » فيرسم بأوراقه صوراً لطومان باى ، وللمشاعلية ، ولباب زويلة ، وللأجناد العثمانية ، وللحبال المعلقة بالبرج الغربى ، ويخايل بظلالها على شاشة بيضاء ، فى وطاق الخنكار سليم شاه بالروضة ، يحف به الصبيان المرد وأمراء الإنكشارية والإصباحية وهو لا يكاد يعى فى سكره . هل كانت حميا العقار أم نشوة الظفر هى التى أطاحت بآخر مشاعر الرجولة والكرم فى نفسه ؟ فلم يحس هذا السفاح العثمانى بدناءة المخايل وتعريضه ، ولم يأمر بالمحبظ أن يحوزق جزاء له على « خيال ظله » العاهر ، بل ينشرح صدره ، ويأمر له بثمانين ديناراً ذهباً ، وفراجة من الخمل المذهب ، ويربت على كتفه قائلا : « يجب أن تأتى معنا إلى إسطنبول ليرى ولدى ذلك » .

عار على مولانا السلطان ابن السلطان ، إلى عشرين ملكاً ، كما يقول سيد البرين وخاقان البحرين ، ملك العراقين وإمام الحرمين الشريفين ، الملك المظفر سليم شاه !

ينزل الستار

عندما يتحدث ابن إياس عن عام ٩٢٣ هـ (١٥١٧ م) يقول فى بساطة : « انتهى ما أوردناه من حوادث سنة ٩٢٣ ، وقد خرجت هذه السنة على خير » ، ولا نحسبه هنا إلا متيمناً ، يحمد الله الذى لا يحمد على مكروه سواه . لأن حقيقة تلك السنة أقرب إلى ما جاء فى تتمة تعليقه حين يقول إنها كانت « سنة صعبة شديدة على الناس » . وحتى فى هذا كان العلامة المؤرخ محمد ابن أحمد بن إياس الحنفى المصرى ، مقتصداً فى التعبير ، فهو نفسه القائل تعليقاً على غزو العثمانيين لمصر ، وعودة سليم بن عثمان إلى إسطنبول : « ومن العجائب أن مصر صارت نيابة ، بعد أن كان سلطان مصر أعظم السلاطين فى سائر البلاد قاطبة . لأنه خادم الحرمين الشريفين ، وحاوى ملك مصر الذى افتخر به فرعون اللعين حيث قال « أليس لى ملك مصر » ، وقد تباهى ملك مصر على سائر ممالك الدنيا . ولكن ابن عثمان هتك حريم مصر ، وغنم أموالها ، وقتل أبطالها ، ولا حول ولا قوة .. ومن عهد عمرو بن العاص فاتح مصر سنة ٢٢ من الهجرة عنوة بقائم سيفه ، لم يفتحها أحد من الملوك بعده عنوة ، سوى سليم شاه ، ولم يقع مثل ذلك إلا لبختنصر فى قديم الزمان . . . ولم يقاس أهل مصر شدة مثل هذه قط ، إلا ما كان فى زمن بختنصر البابلى لما أتى من بابل ، وزحف على البلاد بعسكره ، وأخربها ، وهدم بيت المقدس ، ثم دخل مصر وأخربها عن آخرها ، وقتل من أهلها مائة ألف ألف إنسان ، حتى أقامت مصر أربعين سنة وهى خراب ليس بها ديار ولا نافخ نار . فكان النيل يعلو ويهبط فلا يجد من يزرع عليه الأراضى ، ولا ينتفع به . لكن هذه الواقعة لها نحو ألفى سنة ، وهى قبل ظهور عيسى بن مريم عليه السلام . ثم وقع مثل ذلك لبغداد فى فتنة هولاكو . »

أصدر ابن عثمان فى أواخر شهر ربيع الثانى من تلك السنة أمره لأمير المؤمنين

العباسي : « اعمل برقك حتى تسافر إلى إسطنبول » . وخرج أمير المؤمنين « المتوكل على الله » يوم الثلاثاء ثانى عشر جمادى الأولى قاصداً السفر إلى إسطنبول ، ومعه أولاد عمه وصهره وآخرون من الأعيان . فحصل للناس على فقد أمير المؤمنين من مصر غاية الأسف ، وقالوا : انقطعت الخلفاء من مصر ، وصارت بإسطنبول ، وهذه من الحوادث المهولة .

وخرج جماعة من المباشرين ، وبعض نصارى من كتاب الخزينة ، ومن جماعة البزدارية والرسل ، وأرباب الصنائع من كل فن ، وشيخ سوق الغزل ، والزردكاشية والسيوفية والصياقلة والسباكين والحدادين ، وتجار الباسطية وتجار سوق مرجوش ، ومقدمى السقائين والنجارين والمرخمين والمبلطين والخراطين والمهندسين والحجارين والفعلاء ، وجماعة من اليهود السامرية وطائفة النصارى ، حوالى ١٨٠٠ نفس .

وحملت مراكب سليم بن عثمان حتى الشبابيك الحديد ، والطيقان والأبواب والسقوف .

وحمل سليم معه ، بطريق البر ، على ألف جمل — كما أشيع — أحمالا من الذهب والفضة والتحف والسلاح والصينى والنحاس المكفت ، ثم أخذ الخيول والبغال والجمال والرخام الفاخر ، ومن كل شىء أحسنه . وكذلك غنم وزراؤه من الأموال الجزيلة ، وكذلك عسكره فإنهم غنموا من النهب ما لا يحصى ، وصار أقل فرد منهم أعظم من أمير مائة ، مقدم ألف .

وبطلت من القاهرة نحو خمسين صنعة .

ومسك رجال الدرك الناس على أبواب القاهرة من رئيس ووضيع ووضعوهم فى الحبال ، حتى من يلوح لهم من القضاة والشهود ، وطلعوا بهم إلى القلعة ، وهناك ربطوهم ليسحبوا المكاحل النحاس الكبار ، وينزلوا بها إلى شاطئ النيل ، ويضعوها فى المراكب . وكان الرجال يربطون بالحبال فى رقابهم ، ثم يسوقونهم بالضرب الشديد على ظهورهم ، ولو كانوا من أعيان الناس .

وكانوا قد نزلوا قبل ذلك بالعامودين السماقى اللذين قلعوهما من إيوان القلعة ، وارتجت لهما الصليبة ، وقاسى الناس فى سحبهما غاية المشقة ، وحصل لهم بهدلة

من الضرب والصك وخطف العمائم .

ومن حوادث السنة أنهم أخرجوا من الخليفة العباسى نظر مشهد السيدة نفيسة ، وكان ذلك بين الخلفاء من قديم الزمان ، وكان من جملة تعظيمهم . وكان يحصل لهم من هذه الجهة غاية الخير من الشموع والزيت ، ومن الصندوق الذى تحت رأس السيدة نفيسة مبلغ له صورة من النذور .

وقطع سدّ الخليج وجرى الماء فى الخليج الحاكمى والناصرى ، بحضور يونس باشا نائب السلطنة . فلم يكن ليوم الوفاء بهجة مثل العادة .

ونصب العثمانية خيمة فى وسط الرميلة ، وجعلوا فيها دنان بوزة . وخيمة أخرى فيها جفان حشيش ، وخيمة ثالثة فيها صبيان مرد لأجل المحارفة كعاداتهم فى بلادهم .

وفى يوم الجمعة الحادى عشر من ربيع الأول كانت ليلة المولد النبوى . فلم يشعر به أحد من الناس ، وبطل ما كان يعمل فى ليلة المولد . وأشيع بأن ابن عثمان باع خيمة المولد للمغاربة بأربعمائة دينار . فقطعوها وباعوها للناس ستائر وسفر . وهذه الخيمة من جملة عجائب الدنيا . قيل إن تكاليفها على السلطان الأشرف قايتباى كانت ثلاثين ألف دينار . وقيل بل أكثر من ذلك . وكانت كهيئة قاعة لها أربعة لواوين ، وفوقها قبة بقمريات . والكل من قماش . وكانت إذا نصبت أيام المولد يحضرون بجماعة من النواتية نحو خمسمائة إنسان . حتى ينصبوها فى الحوش السلطانى .

ونزل رخام القلعة ووضع فى صناديق وحمل إلى المراكب . وهو الرخام الذى أمر ابن عثمان بفكه من قاعة البيسرية والدهيشة والبحرة والقصر الكبير ، وغير ذلك من أماكن بالقلعة ، وفك العواميد السماقية التى كانت فى الإيوان الكبير .

وصار يحيى بن بكار يركب ومعه جماعة من المرخمين ، فيهجمون قاعات الناس ، ويأخذون ما فيها من الرخام السماق والزرزورى الملون . فأخربوا عدة قاعات من أوقاف المسلمين وبيوت الأمراء قاطبة ، حتى القاعات التى ببولاق . وقاعات الشهابى أحمد ناظر الجيش التى على بركة الرطلى . وغير ذلك من قاعات

المباشرين والتجار وأولاد الناس . والمدارس التى فيها الكتب النفيسة ؛ فلم يعرفوا الحلال من الحرام .

وهى السنة التى شنق فيها طومان باى آخر سلاطين مصر على باب زويلة ، وأقام وهو معلق حتى فاحت رائحته . وفى اليوم الثالث أحضروا له تابوتاً ؛ ووضعوه فيه ؛ وتوجهوا به إلى مدرسة السلطان الغورى عمه . فغسلوه وكفنوه . وصلوا عليه ؛ ودفنوه فى الحوش الذى خلف المدرسة .

ومضت دولة السلاطين كأنها لم تكن .

وشرعت العثمانية تقبض على المماليك الجراكسة المختفين فى الترب ، ومساق الموتى . وغيطان المطرية ، وتضرب أعناقهم .

وقبض مشايخ العربان على الأتابكى سودون الدوادار . وأحضروه بين يدى سليم الذى وبّخه بالكلام . وكان جريحاً مكسور الفخذ فى حالة الأموات ، فلم تأخذه عليه شفقة ؛ بل أركبه على حمار ، وألبسه عمامة زرقاء ، وجرّسه فى وطاقه . وقصد أن يشهره فى القاهرة ، ولكنه مات وهو على ظهر الحمار ، فحز رأسه وعلقوها فى الوطاق .

وضرب العثمانية فى يوم واحد ٣٣٠ رأساً ، وصاروا يكبسون الحارات والبيوت ويقبضون على المماليك الجراكسة من إسطبلاتهم ، ويتوجهون إلى الوطاق بالريدانية ؛ ويضربون أعناقهم . ونصبوا صوارى وعليها حبال علقوا عليها رءوس من قتل من المماليك الجراكسة وغيرهم . حتى قيل قتل فى الريدانية فوق ٤٠٠ إنسان ما بين جراكسة وعربان من الشرقية والغربية ؛ وصارت الجثث مرمية من سبيل علاّن إلى تربة الأشرف قايتباى ، فجافت منهم الأرض . وصارت لا تعرف جثة الأمير من جثة الصعلوك . وهم أبدان بلا رؤوس .

هذه بعض حوادث سنة ٩٢٣ هجرية التى يقول عنها ابن إياس إنها « خرجت على خير » . ولا ندرى بعد ذلك ماذا تكون السنة التى تخرج على شر ؛ ثم يزيد قليلا فيقول إنها : « كانت صعبة شديدة على الناس » . وإننا لنعذر لابن إياس هذه السذاجة فى الأسلوب ، ونحسبنا أنه عرف ووزن ثقل الرزء القومى الفادح الذى نزل بمصر . ثم أخذت مذكراته . فيما تبقى للرجل من عمر ، تصور الآثار المباشرة

للغزو العثمانى فى أوائله ، وقد عرفنا نحن أواخره !

نزل الستار على تاريخ مصر ، وأرخى الظلام سدوله على القاعة بعد خروج الممثلين والنظارة ، وهم أولئك العلماء والفنانون والتجار وأهل الحرف والصنائع والمباشرون والكتّاب ، الذين أخرجوا فى ركاب سليم العثمانى . وإذا كانت مصر لم تخل تماماً من أهلها — كما حدث لها بعد غزوة بختنصر فى الألف الثانية قبل ميلاد عيسى بن مريم عليه السلام ! — فإن التاريخ المصرى سوف يصاب بظلام تاريخى يشبه ما أصابه بعد غزو الهكسوس ، ولو أننا فى العهد الحديث لا نجهل تماماً ما حدث بعد آخر صفحة من صفحات ابن إياس ؛ وابن زنبل الرمال ، حتى أول صفحة من مذكرات الشيخ عبد الرحمن الجبرتى . فعندنا بعض ما كتبه المؤرخون العثمانيون ، وما جاء فى مذكرات رجالهم ، وعندنا أقوال الرحالة الأوربيين الذين زاروا مصر فيما بين القرن السادس عشر والقرن الثامن عشر الميلادى . وأحقهم بالذكر كتاب فولنيه ورسائل سافارى فى خواتيم القرن الثامن عشر .

والظلام الذى نتحدث عنه ليس ظلاماً تاريخيًّا تامًّا . بل كان ديجوراً روحيًّا . ولا أحسب مصر فى تاريخها الطويل عرفت عهداً أظلم من تلك القرون الثلاثة بل الأربعة التى مرت على مصر بعد موقعة مرج دابق بالشام ، وموقعة سبيل علاّن بمشارف القاهرة .

وقبل أن نتابع ابن إياس فى يومياته عقب الغزو العثمانى يجدر بنا أن نعرف الصورة العامة التى تبدو لنا نتيجة لهذا الاحتلال . وأول ما يجبهنا هو سرعة عودة المماليك إلى التحكم فى أقدار البلاد ، لا كسلاطين يحكمون إمبراطورية مستقلة ، ولكن كفلول عصابة اجتمعت على نهب مصر . والضحك على ذقن الباشا العثمانى الذى يحكم مصر بالنيابة عن الباب العالى . وسيصل المماليك إلى غرضهم عندما ترضى إسطنبول أن يعترف الباشا لواحد منهم بالزعامة على المصريين باسم « شيخ البلد » ، ولوكيل له باسم « أمير الحج » .

وسيبلغ واحد من مشايخ البلد مرتبة الحاكم المستقل فعلا عن الأستانة فى القرن الثامن عشر . ذلك هو على بيك الكبير . البروفة الأول لمحمد على باشا ، حتى يقضى عليه مملوكه وخدنه وصهره محمد بيك أبو الدهب ، وتعود الأستانة إلى

إيفاد باشواتها اللصوص ؛ ولكن الزعامة الفعلية فى البلاد ستظل فى أيدى المماليك ؛ حتى يجئ صارى عسكر بونابارته ليكسر شوكتهم بعض الوقت ، ويتولى محمد على بعده مهمة القضاء الأخير عليهم فى مذبحة القلعة .

ومن السهل فهم سيطرة المماليك هذه إذا عرفنا حقيقتين : أولاهما أن الذى تولى حكم مصر نيابة عن السلطان العثمانى . بعد سفر سليم ، كان أميراً من أمراء المماليك المصرلية ، الذين خامروا على السلطان الغورى ،وكانوا سبباً فى خراب الديار المصرية والديار الشامية . لأنهم حسنوا لسليم بن عثمان عبارة أخذ مصر ، وضمنوا له أخذها من غير مانع ؛ وعرفوه كيف يصنع حتى يملكها . فيجرى ما جرى من هزيمة جيوش السلطان قانصوه الغورى فى مرج دابق إلى الشمال من حلب ، وموت السلطان واختفاء جثمانه فى المعركة ؛ ثم ما حدث بعد ذلك من هزيمة السلطان طومان باى ، وشنقه على باب زويلة ؛ وقتل الأمراء والمماليك الجراكسة . وكان كل ذلك « بترتيب ودوليت » الأمير المملوكى خاير بيك — أو خاين بيك كما لقبه المصريون — والأمير المملوكى جان بردى الغزالى .

كوفئ الخائنان أحدهما بولاية الشام ، والثانى بولاية مصر ، أى بجوهرتى الإمبراطورية المملوكية . ولن يهمنا أمر الخائن جان بردى الغزالى . والرجل لم يتمتع طويلا بأجر خيانته . فقد استقل بالشام عام ٩٢٧ هـ ، وأرسل السلطان سليمان القانونى تجريدة لإخضاعه .

وزل لسان مملوك من مماليك يشبك الدوادار المصرى إذ قال فى مجلس له : « إن خاير بيك يقصد أن يتسلطن بمصر كما تسلطن الغزالى بالشام» ، فأمر خاير بيك بتوسيطه . وحاول الأمير قايتباى الدوادار أن يرقع له خلله ، فطفش فيه ملك الأمراء وكاد أن يفتك به . ووسط المملوك بسوق الخيل ، واستمر مرميًّا فى الرميلة ، والكلاب تنهش جثته فى الليل ، ورسم ملك الأمراء أن لا أحد يدفنه . .. وكان هذا المملوك شيخاً مسنًّا له أولاد وعيال .

وانتهى أمر جان بردى الغزالى عاجلا بعد أن انكسر فى أكثر من موقعة أمام عسكر السلطان سليمان القانونى ، وكانت كسرته الأخيرة مهولة ، وقبض عليه وحز رأسه وأرسل إلى إسطنبول .

أما خاير بيك — المدعو ملك الأمراء وكان جركسى الأصل . ومن مماليك الأشرف قايتباى . فقد مات فى فراشه . بعد أن حكم مصر خمسة أعوام ؛ مات غير مأسوف عليه من أحد . ويقول ابن زنبل الرمال إن أمراء المماليك لم يكونوا يقرءون الفاتحة عليه وهم يمرون بتربته تحت القلعة ، لاهم ولا الباشوات ولا الأغوات ولا السناجق . ويدعى عوام مصر أنه كانت تخرج من قبره أصوات أنين فى الليالى الحالكة .

ويبدو أن يونس باشا كبير وزراء سليم بن عثمان كان طامعاً فى تولى نيابة السلطنة بمصر . وقد تولاها فعلا أثناء إقامة سليم بالديار المصرية ، فلما سافر مع ابن عثمان . وقد ولى على مصر واحداً من المماليك المصرلية ، زل لسان يونس باشا ، ونعى على السلطان أن أعاد مصر إلى ملاكها القدامى ، وكان جزاؤه أن أطاح سليم برأسه .

ويظهر أن سليم كان قد وعد خونة المماليك بإعادة رزقهم وإقطاعاتهم كما وعد خاير بيك وجان بردى الغزالى بولاية مصر والشام مدى الحياة .

وما إن سافر سليم حتى يأمر خاير بيك بأن «يظهر الجراكسة وعليهم الأمان» . فظهر منهم الجم الكبير وهم فى أسوأ حال . عليهم زنوط قرع ، وبرد سود ، وقمصان بأكمام كبار . فإذا رآهم أحد لا يفرق بينهم وبين الفلاحين .

وطلع الأمير قايتباى الدوادار إلى القلعة لصرف جوامك المماليك . واجتمع بملك الأمراء خاير بيك وأقام بالقلعة إلى قريب الظهر والجراكسة فى انتظاره على باب بيته . فلما نزل إليهم قال : « يا أغوات . شاورت ملك الأمراء فى أمركم فقال : انظرونا حتى يجتمع المال . وننفق عليهم الجوامك . ولم يواعدنى على يوم معين . »

فرجعوا بغير طائل . وقد صارت وجوههم فى غاية الذل من الفقر والعرى . ومنهم من سأل الناس فى رغيف يقتات به . ومنهم من يطوف فى الأسواق يسأل التجار والسوقة فى درهم يشترى به كبشة فول يأكلها . ويضيف ابن إياس — وهو من أهلهم وعترتهم — « وكان هذا جزاء بما كانوا يعملون . فسبحان من قهر الجبابرة بعزه وسلطانه . »

ولم تلبث المراسيم أن حضرت من عند الخنكار سليم شاه ، وكان مضمونها أن يصرف خاير بيك لأولاد الناس [أى أبناء المماليك وأحفادهم] ، وللمماليك الجراكسة ، جوامكهم ، وأن يجرى الناس على عوائدهم من كبير وصغير .

وكما لم يشعر الناس بأفراح قطع الخليج ولا بالمولد النبوى عام الغزو ، فإن أحداً منهم لم يشعر بالمولد النبوى فى حكم خاير بيك ؛ وقيل بأن ملك الأمراء أحضر عنده للمولد عشر جوخ للمقرئين . فضجوا من ذلك وقالوا : نحن كان يدخل علينا فى المولد النبوى الذى كان يعمله السلطان لكل واحد منا مائة شقة ، فكيف نأخذ فى مولد ملك الأمراء جوخه بأشرفيين .

ثم مد سماطاً بعد العصر تخاطفته العثمانية فى لمح البصر . وبات غالب الفقهاء بلاعشاء .

وحدث أن شخصاً من العوام دخل بعض الغيطان وقطع عيدان خيار شنبر ووضعها فى قفة . فقبض عليه الخولى . وكان ملك الأمراء حرج على بيع خيار شنبر وصار يشتريه على ذمته ويتجر فيه . فرسم الوالى بشنقه ، وأشهر بالقاهرة وعلقت القفة فى رقبته ، وشنق على القنطرة التى بزقاق الكحل . وأقام ثلاثة أيام وهو مصلوب لم يدفن . . .

هذا وملك الأمراء خاير بيك يبيت يسكر طول الليل ويصبح فى خيال السكر يحكم بين الناس بما يقوله له عقله المتأرجح .

وكأنه لم يكفه ما حمل الخنكار سليم من خيرات مصر ، فما كان أسرعه إلى إهداء السلطان العثمانى الجديد سليمان بن سليم تقدمة عظيمة : تفاصيل سكندرية ، وأبدان منزلاوية . وقماشاً فارسكورياً . وغير ذلك من شاشات ومقاطع خمسينى ، وخام رفيع ؛ وأحمال شقادف ضمنها مرطبنات أشربة مربى .

وسافر إلى الشرقية جان بيك دوادار الأمير قايتباى الدوادار الكبير ومعه شاد الشون والقاضى عبد الفتاح وآخرون من المباشرين . ليمسحوا جهاتها ، ويميزوا الشراقى من الرى ، ويمسحوا الأقاطيع والرزق إلخ . وصاروا ينزلون إلى البلاد ويقررون عليها المال . ويضعون الفلاحين فى الحديد بعد الضرب المؤلم . ويقررون على كل بلد ما يختارونه من الأموال . وخرب فى هذه الحركة غالب بلاد الشرقية ،

ورحل عنها الفلاحون ، وكان هذا أكبر أسباب الفساد فى حق الناس .

وفى رمضان تشحطت الأسعار فى سائر البضائع ، وكادت الناس أن يأكل بعضها بعضاً ، وجلس ملك الأمراء فى المقعد بالقلعة ، فتكاثرت عليه المماليك الجراكسة ، فحنق منهم وقال للإنكشارية : اضربوهم واطردوهم من المقعد . فضربوهم بالعصى على وجوههم ضرباً فاحشاً ، وحصل للمماليك فى ذلك اليوم كسر خاطر .

ولكنهم عاودوا الطلوع إلى الميدان بسبب تفرقة الأطلاق ، فحضر القاضى شرف الدين الصغير كاتب المماليك ، وفرق الأطلاق فأعطى لجماعة منهم فدان طين ونصفاً ، والبعض فداناً ، والبعض نصف فدان . فتضرر المماليك وقالوا : إيش يكفينا النصف فدان ! فسبهم القاضى سبًّا قبيحاً وقال لهم : « يا كلاب يا زرابين ! أنتم بقى لكم باب ولا راس حتى تتكلموا . بيضّم وجوهكم فى إيش حتى تستحقوا أطلاقا » ، وبهدلهم غاية البهدلة .

وفى آخر رمضان أرسل ملك الأمراء أمير علم إلى بيت الأمير قايتباى الدادوار — وكان بين الاثنين حظ نفس — وقال له : قد رسم لك ملك الأمراء أن تدق على بابك فى هذه الليلة طبلخانات وكؤوسات . فأرسل الأمير الدوادار يسأل : أدق فى هذه الليلة فقط ، أو أدق الطبلخانات على بابى دائماً ؟ فلما بلغ أن القصد الليلة فقط ، لم يوافق وقال : « أدق الطبلخانات على بابى ليلة واحدة حتى تضحك الناس على ؟ » وامتنع .

وكان هذا آخر ما سمع عن التقليد القديم من تقاليد المماليك ، وهو دق الطبل على أبواب الأمراء منذ ترقيتهم إلى أمراء أربعين — أى أمراء طبلخانات — حتى بلوغهم أعلى المراتب . ويقول فى ذلك ابن إياس : « وقد بطل أمر دق الطبلخانات على أبواب الأمراء حين دخل ابن عثمان إلى مصر ، وبطل ما كان يعمل فيها فى يوم العيد من المواكب الجليلة ، والخلع المتمرات ، والتشاريف السنية ، وبطلت الطرز البلبغاوية العراض ، والفوقانيات الحرير الأخضر ، وبطلت أشياء كثيرة كانت من شعار المملكة . . . ونودى فى القاهرة بأن لا أحد يصنع خيال الظل . ولا مغانى عرب ولا غير ذلك » . وفى هذا ندرك خشية ملك الأمراء من الروح

المصرى الساخر ، القادر على أن يدخل فى مغانيه وقصصه وتشخيصه كل ما يفرج به كربته ، ويتندر به من شئون الحكم .

وتزايد الضرر من عساكر الإصباحية فى حق الناس ، وصاروا يخطفون النساء من الطرقات ، وكذلك الصبيان المرد ، حتى قيل إنهم خطفوا امرأة عند سلم جامع المؤيد ، تحت دكان الذى يبيع الكعك . والناس ينظرون إليهم وهم يفسقون بها ، فلم يجسر أحد أن يخلصها منهم .

واستمر النيل فى التوقف عن الزيادة ، فأمر ملك الأمراء بإبطال المحرمات من النبيذ والحشيشة والبوزة ؛ ومنع بنات الخطا من عمل الفواحش ، وقبض الوالى على امرأة يقال لها أنس . كانت ساكنة فى الأزبكية ، تجمع عندها بنات الخطا اللاتى يعملن الفاحشة ، وكان عليها مبلغ مقرر تورده للوالى كل شهر ، ضريبة عن صناعتها ؛ وكان أمرها مشهوراً ، فرسم ملك الأمراء بتغريقها هى وامرأة أخرى يقال لها بدرية ، كانت ماشية على طريقة أنس هذه .

فلما زاد النيل رجع كل شىء إلى حاله ، وسبب ذلك أن العثمانية تعصبوا فى إعادة ذلك ، لأن أكثرهم كان يبيع البوزة فى الدكاكين ؛ ورسم ملك الأمراء بأن لا يعارض أولاد أنس فيما يفعلون من جمع بنات الخطا كما كانت تفعل أمهم أنس .

وأمر ملك الأمراء مرة بقتل ثمانية أنفس فى يوم جمعه ، فشنق منهم جماعة ، وخوزق منهم جماعة واقترحوا لهم العذاب حتى صاروا يخوزقونهم من أضلاعهم ، ويسمون ذلك طريقة شك الباذنجان .

* * *

ثم حدث التغير الذى أشرنا إليه من قبل فى معاملة الأمراء الجراكسة ، فقد قال لهم أمير الأمراء يوماً : « والله لولا أنا ما خلى الخنكار سليم منكم مملوكاً يلوح على وجه الأرض ، فإنى شفعت فيكم من القتل » ؛ فقال له الأمير قايتباى الدوادار : « الكل صاروا رعيتك ، ولهم أولاد عيال ، وقد مسهم الفقر والفاقة ، والآن يطلبون صدقة الخنكار وصدقتك . »

وآية ذلك أن السلطان سليمان بن سليم كان حريصاً على أولئك الأجناد

الممتازين . وأحس ملك الأمراء بذلك فغير سياسته نحو المماليك ؛ وأقام هؤلاء صدورهم بعد موت سليم . وصار ملك الأمراء يترضى خواطرهم . وأخذ القاضى شرف الدين الصغير — وهو الذى كان قد دعاهم بالكلاب والزرابين يخاطبهم بقوله : يا أغاوات يا أمراء !

ورسم السلطان سليمان القانونى بعودة بقية الأسرى المصريين فى إسطنبول ، فيما عدا أولاد السلاطين ، وجماعة من المباشرين ، ومن أولاد الجيعان ، لحاجة السلطان إلى مراجعة حساب الديار المصرية ؛ وفيما عدا الأمراء الجراكسة والمماليك ، فإن السلطان لم يأمر لهم بالعودة . ولم يقبل منهم شفاعة ؛ واستمروا فى بلاد الروم ، ذلك أن سليمان كان قد اعتزم الانتفاع بهم فى حروبه . وطلب فعلا إلى خاير بيك أن يرسل إليه فرقة منهم لتساعده فى فتح جزيرة رودس .

ولقد وصل الأمير قايتباى بالتجريدة المصرلية لملاقاة السلطان بجزيرة تجاه رودس أقاموا بها ثلاثة أيام ؛ وفى اليوم الثالث أوكب السلطان وجلس للعسكر جلوساً عامًّا . فلما نظر قايتباى الدوادار ، عظمه وأكرمه ، هو والأمراء صحبته . ووقف المماليك الجراكسة قدامه ، فشكرهم وأثنى عليهم ، وقيل إن السلطان سليمان استقل عقل والده سليم شاه الذى قتل المماليك وقال : أمثل هذه المماليك كانت تقتل ؟ !

وقيل بأنه أنزل العسكر المصرى وطاقه عند الوزير الأعظم .

ونعرف بعد ذلك أن وجاقاً سابعاً — أى فرقة — ألف من المماليك الجراكسة وضم إلى الوجاقات العثمانية ، أى إلى جيش الاحتلال العثمانى ؛ وفى القرون التالية يندس أجناد المماليك بين الوجاقات العثمانية ذاتها .

ولبس المماليك الجراكسة ملابس على هيئة العثمانية . واختلطوا بهم حتى صاروا لا يعرف هذا من ذاك إلا بشىء واحد ، هو أن المماليك تعرف بذقونهم . والعثمانية بغير ذقون .

وحتى هذه اللحى لم يقدر لها أن تبقى ، إذ يبدو أن « القانون » العثمانى كان ينص على حلق لحى الجند ، فاستعرض خاير بيك المماليك الجراكسة ، وصار كل من رآه من المماليك ولحيته طويلة يقص منها بعضها ويضعها له فى يده ويقول له : « امش على القانون العثمانى فى قص اللحى وتضييق الأكمام ، وفى

كل ما تفعله العثمانية » ؛ فنزل المماليك من القلعة وهم فى غاية النكد .

فلم يكن المماليك — فى العهد الأول للاحتلال — يحضرون حفل استقبال رسول السلطان العثمانى ومطالعة مراسيمه . وكان الناس يؤمرون بإقامة الزينات والاحتفالات لاستقبال من كان يدعى القاصد ، وجاء قاصد ابن عثمان يحمل خلعة على ملك الأمراء ، وأقامت الناس الزينة نحو عشرة أيام ، وتكلفوا بسبب ذلك كلفة عظيمة من وقيد وقناديل ومشترى زيت ، وحصل فى هذه الزينة من العثمانية غاية الفساد ؛ من خطف النساء والصبيان المرد ، والتجاهر بالمعاصى ليلا ونهاراً ، حتى خرجوا بذلك عن الحد ، لا سيما ما كان يفعل فى خان الخليلى من الفسق .

ولا يعنينا أمر أولئك الجراكسة الذين لم يحسنوا الدفاع عن ملكهم وإمبراطوريتهم بقدر ما يعنينا ما أصاب أهل البلاد الأصالى من رزايا ومحن . فقد أشيع أولا — ثم ثبتت الإشاعة بعد قليل — أنه حاضر صحبة العسكر شخص من العثمانية يزعم أنه قاضى قضاة ابن عثمان ، وعلى يديه مراسيم من عند السلطان سليمان بأن يستقر فى وظيفة يقال لها القسام ، وموضوع هذه الوظيفة أن يكون متحدثاً على جميع الترك قاطبة ، الأهلية وغير الأهلية [أى المماليك الجراكسة والأتراك] ولا يعارض أحد من الناس فى ذلك ، وأن يأخذ مما يتحصل من كل تركة العشر لبيت المال ، ومن مضمون مراسيمه أن لا أحد من الجراكسة ، وأولاد الترك قاطبة ، وأرباب الدولة ، ولا الإصباحية والإنكشارية [وبقية الوجاقات] يعقد عقداً إلا عند القسام ، الذى يأخذ على عقد البنت ستين نصفاً [الأشرفى يساوى ٥٠ نصفاً] والثيب ثلاثين نصفاً . فأخذ بذلك قسائم على قضاة القضاة ، واضطربت أحوال الناس ولم يتعصب أحد من القضاة لمنع ذلك عن المسلمين . وقد خافوا على مناصبهم من العزل ، وتغافلوا حتى ضعفت شوكة الإسلام فى أيامهم ، واستطالت قضاة الروم عليهم ، وقد ترادفت فى تلك الأيام الحوادث المنكرة ، والبدع الشنيعة المخالفة للشريعة .

وفى أواخر الشهر نفسه حضر « أولاق » من إسطنبول فى البحر المالح إلى الإسكندرية ، وطلع إلى ملك الأمراء بمصر ، وعلى يده مرسوم من عند سليمان

ابن عثمان . ومضمونه أن الواصل إلى الديار المصرية . الذى يسمى سيد جلبى هو أعظم قضاة السلطان وأكبرهم . وأن سليمان رسم بإبطال القضاة الأربعة ، ويصير قاضى العسكر الذى هو قادم يتصرف فى الأحكام الشرعية على المذاهب الأربعة .

ولهذا معنى خطير جداً . فإن قضاة المذاهب الأربعة — وجلهم من المصريين الأصالى — كانوا قوة الشريعة فى الدولة المصرية . تنفذ كلمتهم على سلاطين المماليك . وقد أراد السلطان برقوق يوماً أن يستولى على الأوقاف . فعقد مجلساً بالقصر الكبير مع الخليفة والقضاة وشيخ الإسلام سراج الدين عمر البلقينى والأمراء . وتكلم السلطان فى أمر محاربة تيمورلنك . وفى أخذ مال الأوقاف من الجوامع والمدارس وغيرها ؛ فلم يوافق الشيخ البلقينى على ذلك ، ولا القضاة الأربعة ، فشكا لهم السلطان بأن الخزائن خالية . والعدو زاحف على البلاد . وإن لم يخرج العسكر بسرعة . وصل العدو إلى حلب والشام . والعسكر لا تسافر بلا نفقة . فوقع فى المجلس جدال عظيم ، ودافعوا السلطان . وأغلظوا عليه فى القول ؛ فلما طال الأمر وقع الاتفاق بأن يؤخذ من مال الأوقاف أجرة الأماكن وخراج الأراضى سنة كاملة . وتبقى الأوقاف على حالها ؛ وانفض المجلس على ذلك .

وتكرر ذلك فى سلطنة الأشرف أبى النصر سيف الدين قايتباى المحمودى الظاهرى . عندما حاول فى تجريدته على شاه سوار أن يأخذ من الأوقاف . مبيناً أن الأوقاف كثرت على الجوامع والمساجد . وأن قصده الإبقاء منها على ما يقوم بالشعائر فقط . ويدخل الفائض إلى الذخيرة . فمال الخليفة وقضاة الجاه إلى شىء من معنى الإجابة إلى ذلك ؛ وبينما هم على هذا إذ حضر شيخ الإسلام أمين الدين الأقصرائى الحنفى ، وكان قد تأخر عن الحضور . . . ولما سمع هذا الكلام أنكره غاية الإنكار ، وقال فى الملأ العام من ذلك المجلس : لا يحل للسلطان أن يأخذ أموال الناس إلا بوجه شرعى . وإذا نفد جميع ما فى بيت المال ، ينظر إلى ما فى أيدى الأمراء والجند وعلى النساء من حلى ، فيأخذ ما يحتاج إليه ، وإذا لم يوف بالحاجة ، فعند ذلك ينظر فى المهم . فإن كان ضرورياً فى الدفاع عن المسلمين حل ذلك بشرائط متعددة . وهذا هو دين الله تعالى إن سمعت آجرك

على ذلك ، وإن لم تسمع فافعل ما شئت ؛ فإنّا نخشى الله تعالى أن يسألنا يوم القيامة ، ويقول: لنا لماذا لم تنهوا السلطان عن ذلك ، وتوضحوا له الحق . وإذا أراد السلطان أن يفعل شيئاً يخالف الشرع فلا يجمعنا . . . ثم قام ، فانجبه منه السلطان وانفض المجلس على غير طائل ، وكثر القيل والقال ، وكثر الدعاء فى ذلك اليوم للشيخ أمين الدين الأقصرائى ، وعد هذا المجلس من النوادر .

كان هذا هو سلطان القضاة الأربعة على سلطنة المماليك ، وإذا بذلك السيد چلبى قاضى ابن عثمان وقد حضر وبهدل القضاة المصريين ، ووقع منه أمور شنيعة ما تقع من الجهال ولا من المجانين ، وتزايد حكمه بالجور بين الناس ، وقد فتك بهم فى تلك الأيام فتكاً ذريعاً ، وجمع بين قبح الشكل والعقل ، فإنه كان أعور بفرد عين ، بلحية بيضاء ، وقد طعن فى السن ، وكان قليل الرسمال فى العلم ، أجهل من حمار ، لا يدرى شيئاً فى الأحكام الشرعية ، وقدمت إليه عدة فتاوى فلم يجب عنها بشئ .

ووقعت من ملك الأمراء حادثة مهولة ، وهى أنه أمر بضرب المباشرين ، وأولهم الشهابى أحمد ابن الجيعان ؛ فلما حضر بين يديه ، بطحه على الأرض وضربه ضرباً مبرحاً ، حتى يقال تبدل عليه خمسة وعشرون نوبة يضربونه بالعصى ، وكذلك القاضى شرف الدين كاتب المماليك ، وقد ضرب مثل سابقه وحمل مريضاً ، وكذلك القاضى شرف الدين عوض ، فحيى الدين بن أبى إصبع ، ثم رسم بسجن الجميع فى العرقانة .

ويقول ابن إياس إن أولاد الجيعان خدموا سبعة عشر سلطاناً ، وباشروا ديوان الجيش وكتابة الخزائن فى أوائل دولة الأشرف برسباى . وكان أول اشتهارهم وظهورهم فى دولة السلطان المؤيد شيخ ، وذلك نحو مائة وعشرين سنة ، فما أهينوا قط ، ولا صودروا ، ولا جرى عليهم تشويش ، وهم فى كل دولة معظمون مكرمون ، وما تبهدلوا قط ، وما جرى عليهم مثل ما جرى على الشهابى أحمد .

وفى تجريدة المماليك لمعونة سليمان القانونى فى غزو رودس ، رسم ملك الأمراء للوالى أن يقبض على جماعة من الغلمان والفلاحين والمغاربة لأجل أن يجدفوا فى المراكب التى تحمل العساكر المسافرة ، فنزل الوالى وأطلق فى الناس النار ، وشرع

يقبض على كل من رآه فى الرميلة ، وفى الطريق ، وكل من قبض عليه وضعه فى الحديد وأرسله إلى السجن حتى خروج العسكر ، وتعدى الأمر من القبض على جماعة من السوقة والعبيد السود ، إلى القبض على جماعة من التجار والفقهاء وغير ذلك ، فصاروا يشترون أنفسهم بمبلغ له صورة . ثم صار الوالى يركب ويكبس على سواحل بولاق ومصر العتيقة ويقبض على النواتية والفلاحين ، فهرب الناس قاطبة من السواحل . ثم رسم ملك الأمراء لكاشف الجيزة وغيره أن يقبضوا على جماعة من الفلاحين من قلقشندة وقليوب وسبك الثلاث ، ومن شبرى والمنية وغير ذلك من الضياع ، فصار الفلاحون يختفون فى المطامير ، وكادت مصر أن تخرب ؛ وقيل إن مجموع الذين قبضوا عليهم نحو ألفى إنسان ، وقيل أكثر من ذلك ، ومات فى سجن الديلم جماعة كثيرة ممن قبضوا عليهم ، ماتوا من الجوع وشدة الحر والوخم ، ونزل على أهل مصر نازلة عظيمة بسبب ذلك .

* * *

سيستمر الحال على هذا المنوال طوال القرون التالية بل ويسوء : باشا يجئ وباشا يذهب ، لا تتعدى إقامة الباشا منهم العام أو العامين ، ولا يسلم أمره لمن يليه إلا بعد أن يقدم حساباً عن إدارته ؛ فكل باشا يعرف مقدماً أنه مضطر فى النهاية إلى دفع ما سيقرر عليه بسبب هذا الحساب المغلوط .

ومعنى ذلك أن ينهب كل ما يستطيع نهبه ، استعداداً للطارئ المحتوم . وقد نهبوا كلهم ، وسلبوا وقتلوا وعذبوا ، ومن حولهم شيخ البلد وأمير الحج وبقية أمراء الجراكسة ومماليكهم : كلهم يسرقون وينهبون ويعذبون ويقتلون .

هذه صورة مصغرة تصور حال مصر فى الثلاثمائة سنة التى انقضت على الغزو العثمانى . وهى الثلاثة القرون التى تسلمنا إلى يوميات الجبرتى ، إلا إذا توقفنا عند مذكرات ڤولنيه وغيره من الرحالة الأجانب ، لنعرف ما آل إليه حال مصر .

نكتة الفرنساوية

يستهل الشيخ عبد الرحمن الجبرتى الجزء الثالث من مذكراته استهلالا بليغًا ، وكان قد انتهى بمجلده الثانى عند سنتى ١٢١١ ، ١٢١٢ هجرية ، جامعًا لهما فى باب واحد ، معلقاً عليهما بقوله : « لم يحدث فيهما سوى ما تقدمت الإشارة إليه من أسباب نزول النوازل ، وموجبات ترادف البلاء المتراسل ، ووقوع الإنذارات الفلكية والآيات المخوفة السماوية » وكان يمكنه أن يضيف إلى هذا التعليق ما قاله عن سنة ١٢٠٩ ، وهو عندى أقوى ما جاء فى كل تاريخ الجبرتى من تصوير : « سنة ١٢٠٩ : لم يقع بها شىء من الحوادث الخارجية سوى جور الأمراء وتتابع مظالمهم » . أقوى ما جاء فى تاريخ الجبرتى لأنه بهذه الجملة القصيرة قد لخص تاريخ مصر كله دون قصد .

حقًا لم يقع فى تاريخ مصر منذ فجر التاريخ سوى جور الهكسوس والفرس واليونان والرومان ، جور الولاة والحكام والأمراء والسلاطين والمماليك والباشوات والخديوين وتتابع مظالمهم .

فإذا جاءت سنة ١٢١٣ هجرية [١٧٩٨ م] ، أول سنى الجزء الثالث من كتاب « عجائب الآثار » ، أشعرك الشيخ عبد الرحمن بأن أمراً جللا سوف يحدث فى هذه السنة ، « أولى سنى الملاحم العظيمة ، والحوادث الجسيمة ، والوقائع النازلة ، والنوازل الهائلة ، وتضاعف الشرور ، وترادف الأمور ، وتوالى المحن ، واختلاف الزمن ، وتتابع الأهوال ، واختلاف الأحوال ، وفساد التدبير ، وتوالى التدمير . »

ثم هو يلقى بالموعظة قائلا : « وما كان ربك ليهلك القرى بظلم وأهلها مصلحون ». إنما الذى لا يفصح عنه هنا : من هم أهلها ! إذا كان أهلها هم الأجناد العثمانية والأمراء المصرلية ، فقد جاء عقابهم عدلا لا ريب فيه . أما إذا أهلك ربك القرى بمن فيها من الفلاحين ، والمدن بسكانها من مساتير الناس والسوقة والعوام ، فلا نعرف إلا أن أهل مصر على مدى تاريخهم لا يستحقون ظلماً لا من الخالق ولا من المخلوق.

يكتب الجبرتى مذكراته عن سنة ١٢١٣ وهو عارف بالحوادث التى سوف تترادف ، ويكاد اعتقادى يرقى إلى مرتبة اليقين بأن الشيخ عبد الرحمن لم يفكر فى كتابة تاريخه بالصورة التى انتقلت إلينا فى جزئيه الثالث والرابع إلا بعد إدراكه أهمية الحوادث التى تمر بالبلاد ، خصوصاً نكتة [واقعة]الفرنساوية ؛ لأن تفكيره فى المبتدأ كان متجهاً إلى تأليف كتاب للتراجم ، على غرار الجزء الأول من « عجائب الآثار » .

فى عاشوراء عام ١٢١٣ ، وردت إلى القاهرة المكاتيب بأن عمارة إنجليزية من نحو ثلاثين مركباً وقفت بعرض البحر أمام الإسكندرية . وحاول الإنجليز استرضاء السيد محمد كريم ، « الرئيس المشار إليه بالإبرام والنقض فى الإسكندرية » وذلك بأنهم جاءوا لمدافعة الفرنساوية الذين يتهددون بر مصر ، وقد علم الإنجليز أن عمارة فرنساوية كبيرة خرجت من فرنسا برئاسة بونابارته . ولا يعلمون مقصدها ، ويخشى الإنجليز أن يدهم الفرنسيون الديار المصرية ، « فلا تقدروا على دفعهم » ؛ ولا يطلب الإنجليز من المصريين إلا إمدادهم بالماء والزاد بثمنه ، مع وقوف مراكبهم فى البحر من بعيد ، محافظة على الثغر .

ولم يقبل محمد كريم وصحابه ، وأجابوهم بكلام خشن : « هذه بلاد السلطان ، وليس للفرنسيين ولا لغيرهم عليها سبيل » .

أما أمراء الغز بالقاهرة فلم يهتموا بشئ من ذلك ولم يكترثوا به ، اعتماداً على قوتهم وزعمهم « إذا جاءت جميع الإفرنج لا يقفون فى مقاتلتهم ، وأنهم يدوسونهم بخيلهم » .

وكان للفرنسيس — برغم هذه الغطرسة — سبيل على بلاد السلطان ، بعد أسبوع من هذا الكلام . وداس الفرنسيون على المماليك وبلاد السلطان فى أسبوعين . دخلوا الإسكندرية من جزيرة العجمى ، فى جنح الليل ، ودخلوا القاهرة بعد موقعة مع مراد بيك فى مديرية البحيرة لم تدم ربع ساعة ، وموقعة مع بقية المماليك فى بر إنبابة لم تستغرق أكثر من ثلاثة أرباع الساعة .

لم يدس الفرنسيون المماليك بخيلهم ، وإنما داست خيول المماليك أصحابها فى موقعة بر إنبابة . وكان مصير الأمراء المصرلية واضحاً محدداً : القتل برصاص

المربعات الفرنسية . والغرق فى النيل ، والهرب ؛ وقد انتشرت جثث القتلى من الرجال والخيل فى ميدان المعركة ، وطفت عمائم الغرق على سطح النيل فى ذلك الوقت من يولية .

ولن يهمنا أمر هؤلاء المماليك العتاة يداسون تحت أقدام خيلهم ، ويحصدهم رصاص الفرنسيس ، ويغيبهم النيل ، فقد دالت دولتهم منذ الغزو العثمانى فى أوائل القرن السادس عشر الميلادى ، وإن رفعوا رءوسهم بعد حين ، كما سبق القول .

ربما كان لهم العذر أيام الدولة المملوكية الكبرى فى العسف والجور ، إذ استطاعوا أن يدفعوا عن مصر غارات الصليبية والتتار ، وأقاموا لمصر إمبراطورية عظيمة . امتدت من جبال طورس شمالا ، إلى بلاد اليمن والنوبة جنوباً . ومن الفرات والخليج الفارسى شرقاً ، حتى بلاد لوبية غرباً .

أما بعد الغزو العثمانى ، فقد انقلبوا ، مع الباشا التركى وأجناد الوجاقات . منسراً من الطغام ، ومجموعة من البلطجية . يعيشون على سمعة بطولتهم العسكرية . وقد آذنت شمسهم بالغروب ، وسوف ينحل برمهم عندما يجئ مغامر أرنؤدى من صنفهم وجبلتهم وإن لم ينشأ مملوكاً ، بل كان تاجر دخان ، ليقضى على بقيتهم بواسطة أجناده الأرنؤد .

إنما نؤكد هنا ظاهرة فذة فى تاريخ مصر ، لم تعرفها منذ ألفى عام إلا نادراً ، ألا وهى خروج الشعب المصرى إلى الحرب . فقد مرت القرون ولم نسمع أن المصريين اشتركوا فى قتال بالداخل أو بالخارج إلا قليلا ؛ ولعل آخر ما سمعنا من حروبهم كانت فى عهد الأسرات حتى الأسرة العشرين . وفى آخر عهد الأسرات الفرعونية ، كان الجيش المصرى مؤلفاً من الليبيين والإغريق والنوبيين ؛ وسوف نسمع على مدى التاريخ بغزوات وحروب مصرية ، تقوم على أذرع وأسلحة جيش مصرى مؤلف من . . المقدونيين واليونانيين والليبيين وفرسان العرب والبدو والأكراد والمغاربة والفرغانيين والأتراك والبلقانيين والتتار والقبجاك والجركس والقوزاق . . . بل وبعض الجرمان الذى أرسلوا إلى مصر مماليك صغاراً اختطفوا من سواحل البلطيق !

يجب أن نعى ذلك كل الوعى ، وأن لا ننخدع بمواقع صلاح الدين وأسرته ،

ولا بغزوات بيبرس والناصر محمد وقايتباى ، وكلها قامت على كواهل الأجناد الأجنبية . فذلك الوعى له أهمية فى فهم ما سوف يحدث بمصر بعد « نكتة الفرنساوية » . وهذا الحدث سيكون نذيراً بيقظة الشعب المصرى ، وإعلاناً بأن هذا الشعب سوف يستغرق مائة عام حتى يرى أول الغيث فى « هوجة عرابى» ومائة وخمسين عاماً حتى ينهمر الغيث أثناء حركة الجيش المصرى الصميم ، حركة البعث الكبرى « فى الساعات الأولى من صباح ٢٣ يوليو ١٩٥٢ » .

هذا الحدث الكبير ، كان تطوع أهل القاهرة للذود عن حياضها ، ومحاولة الوقوف فى وجه الغزاة .

لم يخرج المصريون لمحاربة الإسكندر ، ولا لمقاتلة أوكتافيانوس أغسطس قيصر ، ولا لصد عمرو بن العاص ، ولا لصد جنود هولاجو ، ولا لمحاربة الصليبيين ، ولا الفاطميين ولا العثمانيين . ولكنهم أمام كل غزو بكوا ضياع الحرية وأحسوا — وهم الشعب المتحضر العريق — بزوال سؤددهم ، وانحطاط دولتهم . وكان شعورهم بالمأساة قويًّا جدًّا كلما اقتحم عليهم الغزاة عقر دارهم ، وقوضوا عرشهم [حتى حين يكون الجالس على هذا العرش أجنبيًّا عنهم] لينزل بوطنهم إلى مرتبة الولاية يحكمها إمبراطور فى روما . وخليفة فى شبه جزيرة العرب . وخاقان فى الأستانة .

وسنرى منذ هذا المحرم سنة ١٢١٣ هجرية — أو فى آخر القرن الثامن عشر الميلادى — أن شيئاً جديداً قد حدث ، عندما قام شعب القاهرة يدفع عداته ،

ولم يكن هذا الحدث فريداً ، بل جاء بعد مقدمات وعلامات لابد من الإشارة إليها واحدة واحدة : فى سنة ١١٩١ [١٧٧٧ م] كان يوسف بيك الكبير ، من أمراء محمد بيك أبو الدهب ، رجلا سهل الاحتداد والتخليط فى الأمور ، ولا يستقر بالمجلس ، بل يقوم ويقعد ويصرخ . ولما تولى إمارة الحج ازداد عتوًّا وعسفاً وانحرافاً . وبخاصة مع طائفة الفقهاء والمعممين . وقد وجد فى حادثة الشيخ صادومة فرصة للنيل من المشايخ . وكان الشيخ صادومة من سمنود ، وله باع طويل فى الروحانيات ، وتحريك الجمادات والسيمات . ويكلم الجن ويشافههم ويظهرهم للعيان . كان الشيخ أحمد صادومة ، بلغة عصرنا ، دجالا

كبيراً ، وقد كشف يوسف بيك ذات يوم عن حجاب خبأته إحدى محظياته بمكان من جسمها ، وقررت أن الشيخ كتبه لها ليحببها إلى سيدها . فقبض يوسف بيك على الشيخ . وأمر بقتله وإلقائه فى البحر ، ثم احتاطوا على داره ، وأخرجوا أشياء كثيرة ، منها تمثال من قطيفة على هيئة عضو الإنسان . واحتفظ يوسف بك بهذا التمثال القطيفة ، ليظهره لمن يجلسون معه ، ويتعجبون ويتضاحكون وهو يقول : « انظروا أفاعيل المشايخ » .

ثم اتفق أن الشيخ حسن الجداوى المالكى طلق امرأة فى غيبة بعلها ، وزوّجها من الشيخ عبد الباقى ، وحضر زوجها الأول من الفيوم ، وذهب إلى ذلك الأمير يشكو له الشيخ عبد الباقى ؛ فقبض على هذا الأخير فى منية عفيف ، وأهانه ، ووضع الحديد فى رقبته ورجليه ، وحبسه فى حاصل أرباب الجرائم ؛ فركب الشيخ على الصعيدى العدوى ، والشيخ الجداوى ، وجماعة كثيرة من المعممين ، وذهبوا إليه ، وخاطبه الشيخ الصعيدى وقال له : « ما هذه الأفعال وهذا التجارى؟ » فقال له : « أفعالكم يا مشايخ أقبح ! من يقول إن المرأة تطلق من زوجها إذا غاب عنها ، وعندها ما تنفقه وما تصرفه ، ووكيله يعطيها ما تطلبه ؟ » فقالوا له : « هذا قول فى مذهب المالكية معمول به ، ونحن أعلم بالأحكام الشرعية » . فقال : « لو رأيت الشيخ الذى فسخ النكاح . . » فقاطعه الشيخ الجداوى : « أنا الذى فسخت النكاح على قاعدة مذهبى » . فقام الأمير على أقدامه وصرخ قائلا : « والله أكسر رأسك » . فصرخ عليه الشيخ الصعيدى وسبه وقال له : « لعنك الله ، ولعن اليسرجى الذى جاء بك ، ومن باعك ومن اشتراك ، ومن جعلك أميراً » . وتوسط الحاضرون من الأمراء يسكنون حدته وحدتهم ، وأحضروا الشيخ عبد الباقى من الحبس ، وخرجوا به وهم يسبون الأمير وهو يسمعهم .

وحدث ما يشبه ذلك عندما قبض هذا الأمير على الشيخ عبد الرحمن العريشى ، وحبسه عند الخازندار ؛ فركب الشيخ السادات إليه ، وكلمه فى أمره ، وطلبه من محبسه ؛ فلما علم الشيخ عبد الرحمن بحضور شيخ السادات ، رمى عمامته وفراجته ، وتطور وصرخ ، وخرج يعدو مسرعاً وهو يقول : « يخرب بيتك يا يوسف بيك » ، ونزل إلى الحوش صارخاً بأعلى صوته ، واحتد يوسف بك وقام على أقدامه يصرخ

على خدمه ويقول « امسكوه ! اقتلوه ! » ونحو ذلك ، وشيخ السادات يهدئه قائلاً : « اجلس يا مبارك » ثم أخذ الشيخ عبد الرحمن إلى داره وتلافوا القضية .

وفى حادثة أخرى أرسل يقبض على شيخ من رواق المغاربة . فاجتمع المجاورون وطردوا المعينين للقبض وشتموهم . وأخبروا الشيخ الدردير . فكتب هذا إلى يوسف بيك بأن لا يتعرض لأهل العلم ، ومعاندة الحكم الشرعى ؛ وأرسلها صحبة الشيخ عبد الرحمن الفرنوى وآخر . فنهرهم وأمر بالقبض عليهم وسجنهم . فقام الشيخ الدردير وإخوانه وأبطلوا الدروس والآذان والصلوات بالأزهر . وأقفلوا أبواب الجامع . وجلس المشايخ بالقبلة القديمة ، وطلع الصغار على المنارات يدعون على الأمراء . وأغلق أهل الأسواق الحوانيت ؛ وعندما حاول إبراهيم بك الكبير تهدئة الحال وأرسل أغا بيت المال ، اجتمعت على الرسول طائفة من المغاربة ، ومعهم بعض العوام ، وبأيديهم العصى والمساوق ، وضربوا أتباع الأغا ورجموه بالأحجار ، فركب عليهم وأشهر فيهم السلاح هو ومماليكه ، فقتل ثلاثة من المجاورين ، وانجرح عدد منهم ومن العامة . وانتهت الفتنة بإعطاء كل ذى حق حقه ، واشترط المجاورون عدم مرور الأغا والوالى والمحتسب من حارة الأزهر .

وفى سنة ١٢٠٠ [١٧٨٥م] ثارت جماعة من أهل الحسينية بسبب ما حصل من هجوم حسين بك شعت على دار شيخ دراويش البيومى ، أحمد سالم الجزار ، وحضروا إلى الجامع الأزهر ومعهم طبول ، والتفت عليهم جماعة كثيرة من أوباش العامة والجعيدية وبأيديهم نبابيت ومساوق . وذهبوا إلى الشيخ الدردير ، فونسهم وساعدهم وقال لهم « أنا معكم » ؛ فخرجو من نواحى الجامع ، وقفلوا أبوابه ، وصعد منهم طائفة على أعلى المنارات يصيحون ويضربون بالطبول ، وانتشروا بالأسواق فى حالة منكرة ، وأغلقوا الحوانيت ، وقال لهم الشيخ الدردير : « فى غد نجمع أهالى الأطراف والحارات وبولاق ومصر القديمة ، وأركب معكم ونهب بيوتهم كما ينهبون بيوتنا ، ونموت شهداء أو ينصرنا الله عليهم » . فلما كان بعد المغرب ، حضر سليم أغا مستحفظان . ومحمد كتخدا أرنؤد الجلفى ، كتخدا إبراهيم بك ، وجلسوا فى الغورية ، ثم ذهبوا إلى الشيخ الدردير وتكلموا معه ، وخافوا من تضاعف الحال وقالوا للشيخ : « اكتب لنا قائمة بالمنهوبات ونأتى بها

من محل ما تكون » . واتفقوا على ذلك وقرءوا الفاتحة وانصرفوا .

وركب الشيخ فى صبحها إلى إبراهيم بك فأرسل إلى حسين بك وأحضره بالمجلس وكلمه فى ذلك ، فقال : « كلنا نهابون — أنت تنهب ، ومراد بك ينهب ، وأنا أنهب كذلك » ؛ وانفض المجلس وبردت القضية .

وفى سنة ١٢٠٩ ، جاء الأهالى للشيخ الشرقاوى يشكون من محمد بك الألفى ، وذكروا له أن أتباعه ظلموهم وطلبوا منهم ما لا قدرة لهم عليه ، فاغتاظ الشيخ ، وذهب إلى الأزهر وجمع المشايخ ، وأقفلوا الأبواب ، وأمروا الناس بإغلاق الأسواق والحوانيت . وفى ثانى يوم ركبوا ، واجتمع عليهم خلق كثير من العامة ، وذهبوا إلى بيت الشيخ السادات ، ومنه إلى بيت إبراهيم بك ، وأخذوا يصيحون : « نريد العدل ورفع الظلم والجور ، وإقامة الشرع وإبطال الحوادث والمكوسات التى ابتدعتموها وأحدثتموها » .

* * *

هذه أمثلة من الحركات الشعبية التى كانت تحدث فى ذلك الزمان بزعامة الشيخ الدردير وغيره من المعممين . ولنا أن نتساءل : كيف صبر الشعب المصرى طوال هذه الأجيال والقرون وهو يعانى الضيم والجور ؟

المهم أن غزواً أجنبياً حدث فى نهاية القرن الثامن عشر الميلادى ، ومن جيش أمة لا تدين بالإسلام .

أما فى الإسكندرية فقد تجمع أهل الثغر وانضم إليهم العربان وكاشف البحيرة ، فلم يستطيعوا مدافعة الفرنسيس ، ولم يثبتوا لحربهم ، وانهزم الكاشف ومن معه من العربان . ورجع أهل الثغر إلى التترس فى البيوت والحيطان ، ودخل العدو البلد لخلو الأبراج من آلات الحرب ، ولكثرة العدو وغلبته . فطلب أهل الثغر الأمان ، ورفع عنهم القتال .

وفى مصر حاولوا الدفاع بإرسال رسول إلى إسلامبول على طريق البر ، « ليأتيهم بالترياق من العراق » ، كما يقول الجبرتى متندراً . وانهزم مراد بك ومن معه أمام طلائع الفرنسيس بقيادة الجنرال ديزيه ، قرب الرحمانية . واشتد انزعاج الناس

بمصر ، وبدأ إبراهيم بك فى عمل متاريس من بولاق إلى شبرا . وتولى إبراهيم بك الدفاع عن بولاق . بينما قام المشايخ والأزهر على قراءة البخارى وغيره من الدعوات . وكذلك أرباب الطرق والأشاير . وأطفال المكاتب ، وكانوا يذكرون الاسم اللطيف وغيره من الأسماء . وحضر مراد بك إلى بر إنبابة ، وعمل متاريس هناك ممتدة إلى بشتيل ، وتولى ذلك هو وصناجقه وأمراؤه وجماعة من خشداشيته ، وحصنوا النيل بالمراكب الكبار والغلايين ، فصار البر الشرقى والغربى ومجرى النيل مملوئين بالمدافع والعساكر والمتاريس والخيالة والمشاة . ومع ذلك فالأمراء لم يطمئنوا ، بل نقلوا أمتعتهم إلى الحواصل والبيوت الصغار غير المعروفة ، وأرسلوا البعض منها إلى الأرياف . فلما رأى أهل البلد منهم ذلك ، داخلهم الفزع ، واستعد الأغنياء وأولو المقدرة للهرب .

ثم نادوا بالنفير العام ، وخرج الناس للمتاريس ، وقد أغلقوا متاجرهم ، وخرج الجميع لبر بولاق . فكانوا ينصبون الخيام بنقود جمعوها من كل طائفة ، أو يجلسون فى مسجد أو مكان خرب ، وبعض الناس يتطوع بالإنفاق على البعض الآخر بحيث إن جميع الناس بذلوا وسعهم ، فلم يشح فى ذلك الوقت أحد بشىء يملكه .

وخرجت الفقراء وأرباب الأشاير بالطبول والزمور والأعلام والكاسات . وهم يضجون بالذكر ، وصعد عمر مكرم إلى القلعة ، فأنزل منها بيرقاً كبيراً أسمته العامة « البيرق النبوى » ، فسار به إلى بولاق ، وأمامه وحوله ألوف من العامة بالنبابيت والعصى والمساوق ، يهللون ويكبرون . وجلس مشايخ العلماء بزاوية على بيك ببولاق يبتهلون إلى الله بالنصر .

وأرسل إبراهيم بك إلى العربان المجاورة لمصر ، ورسم لهم أن يكونوا فى المقدمة بنواحى شبرا وما والاها . وكذلك اجتمع عند مراد بك الكثير من عرب البحيرة والجيزة والصعيد والخبيرية وأولاد على والهنادى وغيرهم .

هذه إذن حركة وطنية عارمة بالقاهرة وضواحيها ، تحاول أن تؤدى ما عليها نحو الوطن ، وأن لا تفوت الفرصة التى ضاعت على أهل الإسكندرية . فهى

من ناحية الشعب المصرى يقظة وتساند فى الدفاع عن الحمى .

ولكن الشعوب لا تدافع بهذه الطريقة ، ولا على هذا النمط من «الهرجلة» . ولا شك أن فوضى حكم العثمانيين والمماليك ظهرت بأجلى صورها فى تلك اللحظات الحاسمة . لم يجهز الشعب لقتال ولم يعدّ له . فالحال لم يتغير عما كان عليه فى أية حقبة سابقة من التاريخ المصرى ، الإسلامى أو المسيحى أو الوثنى ، منذ فتوحات الرعامسة : أجناد أجانب مهمتهم القتال ، وشعب مسالم يتابع صناعات « السلام » .

وسنرى أن هذه الجموع الحاشدة لم تعمل شيئاً أكثر من الصياح والدعاء والتكبير ، والتلويح بالنبابيت والمساوق . بل إن الحركة لم تعد القاهرة وأرباضها . وقد انقطعت الطرق ، وتعدى الناس بعضهم على بعض . وأغار العرب على الأطراف والنواحى . وأخذ الأمراء المصرلية يتحفظون على التجار الإفرنج ، ويحبسون بعضهم بالقلعة . وكذلك جرى التفتيش على بيوت نصارى الشوام والأروام والكنائس والأديرة ، وهددت العامة بقتل النصارى واليهود .

فهى لم تكن حركة وطنية بالمعنى الحديث ، إنما كانت « هوجة » فى شعب القاهرة المسلم ، لم تدرك من غزو الفرنسيس إلا معنى واحداً ، وهو « عودة الحرب الصليبية» ، فهؤلاء نصارى يغيرون على بلاد الإسلام .

استمع إلى الجبرتى : « وضج العامة بالبر الشرقى يصيحون : يا رب ويا لطيف ، ويا رجال الله ! ونحو ذلك ، وكأنهم يقاتلون ويحاربون بصياحهم وجلبتهم . فكان العقلاء يصرخون عليهم ويأمرونهم بترك ذلك قائلين لهم إن الرسول وأصحابه والمجاهدين . إنما كانوا يقاتلون بالسيف والحراب وضرب الرقاب ، لا برفع الأصوات والنباح .

وبعد أن حلت الهزيمة بمراد بك فى البر الغربى [موقعة إنبابة] حوّل الفرنسيس المدافع والبنادق على البر الشرقى وضربوه ، فركب إبراهيم بك والباشا والأمراء والعسكر والرعايا ، وتركوا جميع الأثقال والخيام ، وسار الكبار إلى العادلية شمالا ، أما الرعايا فهاجوا وماجوا ، وعادوا إلى المدينة يضجون بالعويل والنحيب .

ثم خرجت القاهرة بعد ذلك بما يشبه الإجماع ، يهاجر أهلها شرقاً وشمالا وجنوباً . وما إن توسطوا الفلاة ، حتى تلقاهم العربان والفلاحون وأخذوا متاعهم

وأحمالهم ولباسهم ، فلم يتركوا لهم ما يستر عورة ، أو يسد جوعاً ؛ وسلبوا ثياب النساء وفضحوهن وهتكوهن ، « وكانت ليلة وصباحها فى غاية الشناعة » .

هذه الحركة الشعبية المشهورة — وسوف تتلوها حركتان أشد خطورة لمقاومة المحتل الفرنسى — فيها دلالة على يقظة الروح القومى ، ولكن فى حدود ديانة الأغلبية ، ومما لا يتعدى أحياء القاهرة وبعض مناطق بالصعيد . وسوف ينتظر الشعب المصرى أكثر من قرن حتى يثوب إلى الشعور بمصريته .

فهؤلاء هم المصريون يطلب إليهم الفرنسيس أن يقيموا من بينهم حكاماً فيكون جوابهم : « إن سوقة مصر لا يخافون إلا من جنس الأتراك ، ولا يحكمهم سواهم » . فاضطر الفرنسيس على كره أن يسندوا « أغات مستحفظان» وولاية الشرطة وأمانة الاحتساب إلى جنس المماليك ، بل قلدوا برطلمين الرومى النصرانى — « فرط الرمان » بلغة العامة — « كتخدا مستحفظان » . وهو من أسافل نصارى الأروام القاطنين بمصر ، وله حانوت بخط الموسكى يبيع فيه القوارير .

ومهما كان من ضآلة هذه الحركات ، فإن مجرد إضافتها إلى ثورة الشعب على ظلم المماليك ، بقيادة الشيخ الدردير ، يجعل لها معنى عميقاً . فقد كانت بدء صحو هذا الشعب المسكين منذ ثورته الدينية على جنود بيزنطة أيام الصراع بين مسيحية الأقباط (أى الاعتقاد بالطبيعة الواحدة للمسيح) ومسيحية الإمبراطورية الرومانية الشرقية (الاعتقاد بازدواج طبيعة المسيح) ، وذلك فى القرن الخامس الميلادى ، ثم بين سكان الحوف الشرقى من الأقباط وبين أحد الولاة المسلمين فى عهد المأمون .

ولن تقوم للشعب المصرى قائمة بعد فتن الاحتلال الفرنسى إلا فى أواخر القرن التاسع عشر عندما يتحرك الضباط المصريون ويثورون على رؤساء الجند من الجراكسة ، وتبلغ ثورتهم من العنف ما يحمل القوات الأجنبية على التدخل لتسند الخديو المتخاذل الواهن .

وكما قضى الاحتلال البيزنطى على ثورة المصريين فى القرن الخامس ، والاحتلال العباسى على ثورة الأقباط فى القرن الثامن ، والاحتلال الفرنسى على ثورة القاهريين

فى القرن الثامن عشر ، فإن حركة عرابى سوف تترنح تحت ضربات البريطانيين ، يساندهم الجراكسة والأتراك والأسرة الأرنؤدية ، وتخبو نار الوطنية المتأججة تحت أقدام الاحتلال البريطانى فى أواخر القرن التاسع عشر .

سوف يرتفع صوت مصر بلسان مصطفى كامل ومحمد فريد فى العشر سنين الأولى من القرن العشرين ، وسوف تجىء جنازة صاحب «اللواء» مظاهرة من أروع المظاهرات الشعبية . ثم تعود مصر إلى غفوة لن يطول أمرها هذه المرة .

سوف يشرق فجر القومية المصرية فى سنة ١٩١٩ . وحركة الشعب المصرى فى مارس من ذلك العام وما تلاه ، جديرة بعناية المؤرخين . لأنها تميزت بكل صفات القومية الكاملة . لا أثر فيها للدين ولا للملة . ولا زيغ فيها نحو خلافة الباب العالى ، أو نحو المحتل . ومع أنها كانت حركة تحرير من الربقة الأجنبية ، فقد حرصت على مقومات الحضارة الغربية ولم تنبذها . فالكل مصريون قبل كل شىء . يقاومون الغاصب . ويطلبون لبلادهم الاستقلال السياسى والتحرر الاقتصادى والفكرى . أى أنهم يهاجمون الرجعية فى كل صورها .

وثورة سنة ١٩١٩ لن تتوقف بعد هذا . ونارها لن تخبو . وإن تآمر عليها ، بالدس والخديعة . الأغنياء والملك وبطانته . يظاهرون الإنجليز عياناً بياناً فى بعض الأحيان . ومن خلف الستار فى أغلب الأوقات ، وما كان أيسر اللعبة على المحتل وعلى صاحب العرش : لعبة فرق تسد . فالملك ينحرف عن الحركة الشعبية — وكان كارهاً لها فى السر والعلن — مستنداً إلى قوة المحتل . ثم هو يشاكس الغاصب فى سبيل أغراضه الخاصة . مستنداً إلى فريق من المارقين . جمعتهم جامعة الجشع وروح الإقطاع والرجعية والتزلف للألبانى ابن الألبانى الجالس على العرش . فئة ملعونة من محترفى السياسة وجامعى المال والألقاب . لا يراعون للوطن حرمة ولا حقاً .

لو لم تقم ثورة الضباط الأحرار فى ٢٣ يوليو سنة ١٩٥٢ ، لحق للمؤرخ أن يحرر شهادة الوفاة لثورة سنة ١٩١٩ . ولاستطاع أن يحدد بالدقة ظروف موتها . وكان ذلك بعد تأليف وزارة الوفد الأخيرة . وقد قامت على أكتاف الشعب فى انتخابات حرة نسبياً ، قامت ضد الملك المستهتر ، وعلى كره منه ، فما كان

أسرع تلك الوزارة إلى خطب ود الملك ، ونوال مرضاته .

كلا ، لم تمت ثورة سنة ١٩١٩ ، ولقد شعرنا بالحياة تدب فى أوصال القومية المصرية فى الثلاثينات والأربعينات من هذا القرن ، وأحسسنا بنارها تضطرم فى قلوب الشباب ، طلبة وعمالا ، فى كل وقت .

لذلك أحببت أن أسمى حركة الجيش المصرى سنة ١٩٥٢ « ثورة البعث الكبرى» لأننى عشت ثورة سنة ١٩١٩ ، وأنا من شبابها ، وراقبت فى وعى كيف جارت عليها العوادى ، وهى ترفع رأسها بين الفينة والفينة ، لم أكد أستعد لتشييعها إلى قبرها ، بعد استسلام حكومة الوفد وبرلمان الوفد للملك العابث ، ثم بعد حريق القاهرة فى يناير ١٩٥٢ - أو ما أسميه حركة انتحار الشعب المغلوب على أمره ، وقد فقد كل أمله فى ممثليه — حتى صحوت يوم ٢٣ يولية ١٩٥٢ على صوت البشير بنهاية الإقطاع والأرستقراطية والجراكسة وعلى رأسهم «شبل اسماعيل» ، وسليل « محمد على باشا الكبير » .

أذكر ذلك اليوم كأنه بالأمس ، أذكر حالتى الناعسة فى الأسبوعين اللذين تقدما حركة الجيش . كنت أصحو مبكراً لأجلس إلى نافذتى المطلة على البحر ، أراقب شراع السفن البيضاء تظهر فى البعد ، كأنها أجنحة النوارس . أجلس وحيداً ساهماً واجماً ، أبكى وطنى ، وكأننى فقدت كل أعزائى فى هذا العالم . ثم يدق التليفون ليزف إلى البشرى ، فأشعر كأننى عدت من بلاد الغربة النائية . لألتقى بأهلى فى نشوة الفرح ، وأقدامى تطأ أرض الوطن الدافئ الحانى . وخرجت إلى الناس فوجدت شعورهم يلبس شعورى . وأحسست فى تلك اللحظات كأننا نعود جميعاً من ظلام القبور .

من كان يظن أن الشعب المصرى ، الذى بدأ حركاته القومية بالنبابيت والمساوق وقراءة البخارى ، يتولى أمر تحريره فى النهاية أبناؤه الأصالى من حملة السلاح ، رجال المدافع والدبابات والطيارات والطرادات ؟ ولكنه منطق التاريخ ، الذى لا يحسب أعمار الأمم بالأيام ولا بالأشهر . فقد كان هذا الشعب المصرى ، الذى أغفى إغفاءة أهل الكهف ، بحاجة إلى قرن ونصف قرن من الزمان ، ليصحو صحوة الأسد المعافى . ما هو قرن ونصف قرن فى عمر أمة تحمل ألوية الحضارة منذ ستين قرناً ؟

الباشا والمصرلية

لم يكن محمد على باشا إلا صورة كاملة من عهده ، خرج من دولة المؤامرات والنهب والتقتيل والرشوة برتبة «سرششمة» — لفتنانت كولونيل — فى جنود العثمانيين الذين جاءوا ليخلصوا مصر من حكم الفرنسيس . وما أسرع ما فهم هذا الثعلب نوع الوسط الذى يعمل فيه ، وما كان أشبهه بوسط الدولة العلية وإن كان أعمق فساداً وأكثر اختلاطاً ، فيه نفاية كل الأجناس والنحل : من المماليك أو ما يعرفون بالأمراء المصرلية . ومن الأرنؤد والدلاة والتكرور والمغاربة ، وفيه من أشتات الوجاقات العثمانية الينكجرية [الانكشارية] والإصباحية والجاويشية والعزب والجملان ، وكلها ذئاب عاوية جائعة إلى الأسلاب ، عطشى بالدماء . اجتمعت فى أرض الله المباركة ، أرض الخير العميم ، والشعب المسالم السليم النية ، الحانى على زراعته وفنونه وصناعاته ، بلاد الدين الحنيف يقوم عليه رجال فضلاء من شيخة الجامع الأزهر ، جلهم من أهل التقى والورع ، متجردون عن الدنيا ، متفقهون مؤمنون .

والقصة التالية صورة صادقة من ذلك العهد الحالك الأغبر ، تفسر نفسها بنفسها ، وتوضح أحداث مصر الداخلية فى أواخر القرن الثامن عشر توضيحاً لا لبس فيه ، بل هى المقدمة لما تم على عهد « المصلح الأكبر » ، رأس الأسرة العلوية ، من مذبحة المماليك ونفى السيد عمر مكرم والافتئات على حقوق الشعب المصرى الذى لم يحسبوا له حساباً حتى انتصف القرن العشرون .

حدثت وقائعها بين الإسكندرية ورشيد والرحمانية وشلقان وزفيتة ومنية السيرج والقرين والقاهرة . بطلها رجل من أصل جزائرى اسمه على باشا الطرابلسى ، بسبب توليته ولاية طرابلس . وكانت صفته أبيض اللون عظيم اللحية والشوارب ، قليل الكلام بالعربى ، يحب اللهو والخلاعة .

منقولة بنصها عن ذلك الكتاب العظيم : « عجائب الآثار » ، للشيخ عبد الرحمن الجبرتى . الوصافة الصادق والوطنى الكبير ، الذى عرك الحياة المصرية بكل تفاصيلها ، وترك لنا أروع صورة لمصر وأصدق ، فيما بين نهاية القرن الثامن عشر ومطلع القرن التاسع عشر .

فى موسم من مواسم الحج ، والقرن الثامن عشر فى عشراته الأخيرة ، روع الحجاج بخبر رجل فاسق يصطحب معه غلامين جميلين . وقد رأى الحجاج الطرابلسيون هذا الرجل ، وعرفوا بأمر الغلامين فذهبوا من توهم لأمير الحج الشامى ، وعرفوه عن الغلامين — وكانا من أولاد الأعيان فى طرابلس — وعن الرجل الفاسق — وكان والياً من قبل إسلامبول على طرابلس — فأرسل أمير الحج جماعة من أتباعه فى حصة مهملة ، وكبسوا على الباشا ، فوجدوه ومعه أحد الغلامين ، أو على حد قول الحريرى فى إحدى مقاماته : وجدوه « مسافناً لتلميذ ، على جدى حنيذ ، وكأس نبيذ » . وتبعهم الطرابلسية ، وأخذوا يسبونه ويلعنونه وينتفون لحيته ، وقد

هموا بقتله ، وجرحوه جرحاً بالغاً ، وأخذوا منه الغلامين ليردوهما إلى أهلهما فى طرابلس الغرب .

وذهب الرجل الفاسق — واسمه على باشا الطرابلسى — إلى مصر . وأقام معززاً مكرماً عند مراد بك الأمير المصرلى . حيث بقى ما يزيد عن ست سنوات . وحارب الفرنسيس مع الأمراء المصرلية فى موقعة إنبابة ، وهرب معهم إلى قبلى وغير قبلى ، ثم انفصل عنهم وذهب خلف الجبل الشرقى . وسار إلى الشام ومنها إلى إستامبول ، وهناك طلب ولاية مصر . . . وفاز بولاية مصر .

وتبدأ قصتنا قبل ولايته بقليل . عندما هرب محمد باشا خسرو والى مصر إلى جزيرة بدران ، بعد أن نهب العساكر الأرنؤد بيته فى الأزبكية ، وأسقطوا بنبة على الباذاهنج ، ثم أحرقوا البيت . وانتقل الأرنؤد إلى بيت المحروقى ، وبيت حريم خسرو باشا . وبيت المعلم جرجس ، فنهبوها . كل ذلك بقيادة طاهر باشا ، يساعده محمد على سرششمه ، ذلك الضابط المغامر الذى ترك تجارة الدخان فى قولة وانضم إلى الجنود العثمانية الذين جاءوا إلى مصر لمحاربة الفرنسيس ، وتخليص ولاية مصر من حكمهم . لتعود غنيمة سائغة للعثمانيين .

دامت ولاية محمد باشا خسرو سنة وثلاثة أشهر ، وكان سيئ التدبير ، سفاكاً للدماء ، يتكرم على من لا يستحق ، ويبخل على من يستحق . فأنقذ الله منه عباده ، وسلط عليه جنده وعساكره حتى خرج مرغوماً مقهوراً ، ووصل إلى قليوب حيث عشاه شيخ العرب الشواربى . ومنها سار إلى دجوة . . .

ونستأذن القارئ فى أن ننسى أمر هذا الخسرو فى دجوة ، سواء بقى فيها إلى آخر الزمان ، أو غادرها إلى حيث « ألقت رحلها أم قشعم » . ولنعد إلى مصر حيث تولى طاهر باشا قائمقامية البلد ، انتظاراً لفرمان من إسلامبول بتوليته . واعتماداً على عساكره الأرنؤد قبض على أغا الإنكشارية وباش اختيارهم ، وعلى أغا العزب ، وكل من استطاع أن يضع عليه يده من كبار رجال الوجاقات . وامتد جوره إلى سر تجار مصر ، السيد المحروقى ، فقبض عليه أيضاً .

وفى ذلك الوقت قبضوا على المعلم ملطى ، وكان قاضياً أيام الفرنسيس ، فرموا

رقبته على باب زويلة ، وكذا قطعوا رأس المعلم حنا الصبحانى ، من تجار الشوام ، عند باب الخرق .

وشمخ الأرنؤد بأنوفهم على الإنكشارية ، وكان هؤلاء يعتبرون أنفسهم فخذ السلطنة ، والأرنؤد خدمهم . فضاق خناق الإنكشارية ، وركبوا من قلعتهم بجامع الظاهر نحو المائتين وخمسين نفراً ، وذهبوا إلى طاهر باشا يطالبونه بجماكيهم تحرشاً وكيداً ، فعنفهم وتر فيهم ، فبادره أحدهم بضربة يطجان أطارت رأسه من الشباك إلى الحوش ، وسحبت طوائفهم الأسلحة ، ودب الحريق والنهب ووقع فى الناس كرشات .

وكان طاهر باشا معروفاً بالهوس والانسلاب ، والميل للمجاذيب والمسلوبين والدراويش . فلما رأى الأوباش منه ذلك ، تزيا منهم كل بما سولت نفسه وشيطانه ، ولبس طرطوراً طويلا ومرقعة ودلقاً ، وعلق له جلاجل وبهرجان . وعصا مصبوغة وفيها شخاشيخ وشراريب . وطبلة يدق عليها ويزعق ويتكلم بكلمات مستهجنة ، موهماً بأنه من أرباب الأحوال .

انتقل الصراع بعد مقتل طاهر باشا الأرنؤدى بين أحمد باشا والى القاهرة وإنكشاريته ، وبين محمد على سر ششمه وأرنؤده . وكان محمد على يمالئ الأمراء المصرلية حتى عدّى كثير منهم ، ومعهم العربان ، من الجبل إلى المدينة ، وساروا إلى باب النصر وباب الفتوح وأقاموا هناك . وبذلك انحل برم أحمد باشا وتفرق عنه غالب الإنكشارية . وجاءه الأمر من إبراهيم بك بتسليم قتلة طاهر باشا ، وبأن يخرج خارج البلد ومعه مهلة إلى حادى عشر ساعة من النهار ، ولا يقيم إلى الليل ، فامتثل وخرج فى حالة شنيعة ، وكانت ولايته يوماً وليلة لا غير .

وبذلك صفا الجو لإبراهيم بك . ومر الوالى ينادى بالأمان « حسب ما رسم إبراهيم بك ، وأفندينا محمد على » وكثر مرور الغز والكشاف المصاروة ، وترددوا إلى المدينة وعلى أكتافهم البنادق والقرابين . وخلفهم المماليك والعربان ، وهم يسندون سلطة إبراهيم بك وعثمان بك البرديسى ومحمد على سرششمه .

وتخلصوا من الإنكشارية بالتعرية والطرد والقتل . وقد نادى الوالى على الأتراك

والإنكشارية والبشناق والسجماق بالخروج من مصر ، فجلا منهم عن البلاد نحو ألفين وخمسمائة .

وما كاد إبراهيم بك يتولى قائمقامية مصر ، حتى وصل الخبر من الأستانة بتولية بطل قصتنا على باشا الطرابلسى على مصر ، وتأكد الخبر بوصول المذكور إلى الإسكندرية . وأرسل الباشا الجديد خطاب تأنيب للأمراء المصرلية على ما حدث من طرد الباشا خسرو وقتل طاهر باشا .

لم يكن الأمراء المصرلية ليقفوا مكتوفى اليد أمام هذا الوالى ، وهم ما صدقوا أن تخلصوا من الفرنسيس . فليس لديهم أية رغبة فى عودة الحكم العثمانى إلا فى أبسط صورة .

أسرع عثمان بك البرديسى إلى جر شكل الوالى الجديد على باشا الطرابلسى عند بلدة البرج شمالى رشيد . وأرسل إليه الباشا رسولا يواجهه البرديسى بقوله :

– ما المراد ؟ إن كان حضرة الباشا والياً على مصر . فليأت على الشرط والقانون القديم ، ونقيم معه على الرحب والسعة ، وإن كان خلاف ذلك فأخبرونا ، ولكم مهلة ثلاثة أيام .

وبعد ساعتين من انقضاء الإنذار ضرب عليهم البرديسى مائة وخمسين قنطاراً من البارود . وأرسل خطاباً إلى إبراهيم بك يقول فيه « . . . وأنكم ترسلون لنا أعظم ما يكون عندكم من البنب والمدافع والبارود » . فشهلوا المطلوب وأرسلوه فى ثانى يوم ، مع صحبة حسين بك الافرنجى .

وحاول الأحمق على باشا الطرابلسى أن يقطع طريق الإسكندرية على البرديسى . ، فكسر السد الذى بناحية أبى قير ، وهو السد الحاجز على البحر المالح ، وكان من قديم الزمان من السدود السلطانية العظام المتينة ، تتفقده الدول على مر الأيام بالمرمة والعمارة ، فلما اختلت الأحوال وأهمل غالب الأمور وأسباب العمارات ، انثرم منه ثرم فتسربت المياه المالحة على الأراضى والقرى ما بين رشيد والإسكندرية . ولما جاء الإنجليز والعثمانية لإخراج الفرنسيس ، ثرموه أيضاً من الناحية البحرية لأجل قطع الطريق على الفرنسيس ، فبلغت المياه المالحة إلى قرب دمنهور . واختلطت بخليج الأشرفية . وشرقت الأراضى ، وخربت القرى

وتلف الزرع وانقطعت الطرق حول الإسكندرية من البحر ، وامتنع وصول الماء إلى أهل الإسكندرية . ولما استقر العثمانية أصلحوا هذا السد . ولم يكد يفرح الناس بهذا الإصلاح ؛ حتى جاء على باشا وفتحه ، ليمنع وصول البرديسى ورجاله إلى الإسكندرية .

فنهب البرديسى رشيد ، وشحن برج مغيزل — أمام رشيد على الضفة الشرقية للنيل — بالذخيرة والجبخانة .

ونقص النيل فى أيام النسىء ، وحلت المجاعة ، واجتمع مشايخ مصر وتشاوروا فى الخروج إلى صلاة الاستسقاء ، وذهبوا إلى إبراهيم بك فقال لهم : ما أحب ذلك إلى ! فقالوا له : ولكن كيف نحقق شروط الاستسقاء . ومن جملتها رفع المظالم ورد الحقوق والتوبة والإقلاع عن الذنوب وغير ذلك ؟ فأجابهم : هذا أمر لا أقدر عليه وحدى . ولا أحكم فيه إلا عن نفسى . فقالوا له : إذاً نهاجر من مصر . فأجابهم : ورجلى على رجلكم . . .

واضطرت المجاعة البرديسى إلى إخلاء رشيد والبرج وبرج مغيزل والعودة إلى مصر . وخرجت الفقراء بمقاطفهم لملاقاتهم . وعيطوا فى وجوههم ، فوعدهم البرديسى بخير ، وأرسل محمد على سرششمه وخازنداره ، ففتحوا الحواصل فى بولاق ومصر العتيقة ، ووزعوا الغلال بالبطاقات : ويبة غلة لكل شخص من الفقراء ، فحصل للناس اطمئنان . وما هى إلا أيام حتى أنزلوا بالشعب فردة ، وانقلب الوضع المشروع . وانعكس الحال إلى أمر شنيع ، وتسلط العسكر والمماليك على خطف ما يصادفونه من الغلة والتبن والسمن ، وسرّب الناس بهائمهم من عدم العلف . . .

وفى الإسكندرية كان على باشا الطرابلسى قد اطمأن إلى حاله بعد سفر البرديسى ، فرتب طائفة من عسكره على طريقة الإفرنج . فكان يخرج منهم فى كل يوم إلى جهة المنشية فيصطفون ويعملون « مارش وأردبوش » ثم يعودون . وفى مرة أثناء عبورهم بمساكن الإفرنج ووكالة القنصل ، أخرج الإفرنج رءوسهم من الطيقان نساء ورجالا يتفرجون عليهم كما جرت العادة . ويبدو أن بعض الإفرنج أفصح عن سخريته بنظام الجندية المنحرف عن طبيعتهم ، فضرب عليهم

العسكر بالبنادق من أسفل . وضرب الإفرنج عليهم من الطيقان ، وهجم الجند عليهم فى منازلهم ، فخرج القناصل الستة ومن تبعهم ، ونزلوا إلى البحر ، وطلعوا غليون الريالة ، وكتبوا كتاباً بصورة الواقعة ، وأرسلوه إلى إسلامبول وإلى بلادهم .

وأرسل على باشا الطرابلسى خورشيد باشا والى الإسكندرية إلى القناصل ، فأخذ بخواطرهم وضمن لهم ما أخذ منهم .

وراح على باشا يجمع أهل الإسكندرية علماءها وأعيانها ، وطلب منهم كتابة « عرض محضر » على غير صورة الحال — محاولة منه لتبرئة نفسه فى إسلامبول — فامتنعوا عن الكتابة بالزور والبهتان . وكان المتصدر للرد الشيخ محمد المسيرى المالكى ، فمقته الباشا ووبخه .

* * *

خرج على باشا الطرابلسى من الإسكندرية لتسلم زمام الأمور بمصر ، وشرعوا فى عمل المركب التى تسمى « بالعقبة » لخصوص ركوب الباشا . ووصل إلى ناحية شلقان .

وإذا بشتك بك المعروف بالألفى الصغير ورجاله يبلغون تلك الناحية ، وينصبون خيامهم قبال عرضى الباشا ، بل يداخل خيامه بخيام على باشا . فإذا احتج رجال الباشا قال الألفى : هذه منزلتنا ومحطتنا من قديم الزمان . فلم يسع الباشا وأتباعه إلا قلع خيامهم والتأخر .

وأخذ رجال الألفى الصغير جمالا ليحملوا عليها البرسيم من بعض الغيطان ، وحضر أمير أخور الباشا بجماله لأخذ البرسيم من نفس الموضع ، ونهروا رجال الألفى وطردوهم . فأمر الألفى واحداً من كشافه بالركوب رمحاً إلى الغيط . وصل هذا الكاشف وأحضر أمير أخور وقطع رأسه قبالة صيوان الباشا الطرابلسى ، ورجع إلى الألفى بالجمال . . . وبرأس أمير أخور !

نادى الباشا على رضوان ، كتخدا إبراهيم بك ، وقال له : أهذا جزائى بعد أن صالحت عليكم الدولة ؟ وما زلت تضحك على ذقنى وأنا أصدق تمويهاتك حتى جئت إلى هنا لتفعلوا برجالى هذه الفعال وترذلونى وتأخذوا حملتى وجمالى ؟

فلاطفه رضوان كتخدا واعتذر إليه قائلا : « هؤلاء صغار العقول . ولا يتدبرون فى الأمور ، وحضرة أفندى شأنه العفو والمسامحة » .

وأرسل فى طلب جمال الباشا من الألفى . وردها إلى وطاق الباشا . ثم حضر إليه عثمان بك يوسف الخازندار ، وأحمد أغا شويكار . وأخذا بخاطره .

وإذا بالبرديسى يخرج هو الآخر إلى جهة شلقان ، وينصب خيامه على موازاة خيام الألفى الصغير . وينصب باقى الأمراء خيامهم فى اتجاه الجبل . أما الأرنؤدية فاصطفوا فى مواجهة النيل .

ولكن ماذا جاء بهؤلاء الأرنؤدية ؟ إن مجيئهم صورة من صور الغدر المتأصل فى نفوس كل هؤلاء الناس ، من المصرلية إلى العثمانية والأرنؤد والدلاة وغيرهم من الأنجاس ، فقد كان الباشا الطرابلسى قد كتب إلى محمد على سرششمه وأرنؤده . وإلى قبائل العربان ، مكاتبات يستميلهم ويستعديهم على الأمراء المصرلية . ونقل الأرنؤد خبر هذه المكاتيب إلى المصرلية ، فاتفقوا على مخادعة على باشا الطرابلسى ، وإفهامه بأن الأرنؤد ناصروه . فإذا خرج الأمراء المصاروة بحجة ملاقاته والسلام عليه ، يقفون فى مواجهته ، بينما الأرنؤدية من خلفه ، فيأخذونه مواسطة . وتواعدوا على هذا اللقاء فى شلقان . وهونوا على الباشا أمر المصرلية ، وأنهم فى قلة ، وأن المنضمين إليهم على خلاف معهم ، وأن هؤلاء فى الباطن مع الأرنؤدية ومع الباشا الطرابلسى . وهكذا دبروا له تدابير ومناصحات تروج على الأباليس .

ولما وصل إلى الرحمانية أرسل له الأرنؤد مكاتبة سرًّا ، بأن يعدّى إلى البر الشرقى ، فاعتقد نصحهم وعدّى ، ورتب عسكره فى شلقان طوابير ، وجعل كل بنباشا فى طابور ، وعملوا متاريس ونصبوا المدافع وأقفوا المراكب بما فيها من العساكر والمدافع بالبحر على موازاة العرضى .

وفى تلك الأثناء تسلل حسين بك الإفرنجى ومن معه بالعساكر فى الغلايين والمراكب ، واستعلوا على مراكب الباشا وأحاطوا بها ، وضربوا عليهم بالبنادق والمدافع . وساقوهم إلى جهة مصر ، وأخذوهم أسرى ، وعلى رأسهم كبيرهم مصطفى باشا .

ولما تأخر الباشا واستقر بأراضى زفيتة . أحاط به المصريون والعربان وتحلقوا حوله ، ووقفوا لعرضيه بالرصد . فكل من خرج من الدائرة خطفوه ، ومن الحياة أعدموه .

وأرسل إليه الألفى رسولا يقول له : « حضرة ولدكم الألفى يسلم عليكم ، ويسأل عن هذه العساكر المصحوبين بركابكم ، وما الموجب لكثرتها . وهذه هيئة النابذين لا المسالمين . والعادة القديمة أن الولاة لا يأتون إلا بأتباعهم وخدمهم ، وقد ذكروا لكم ذلك وأنتم بسكندرية ؟ »

فقال : « نعم . وإنما هذه العساكر متوجهة إلى الحجاز تقوية لشريف باشا على الخوارج . وعندما نستقر بالقلعة . نعطيهم جماكيهم ونشهلهم ونرسلهم . »

فقال على الكاشف (رسول الألفى) : « يا حضرة أفندى ، لا تفكروا بالقلعة ، فإنهم أعدوا لكم قصر العينى تقيمون فيه ، لأن القلعة خربها الفرنسيس وغيروا أوضاعها ، فلا تصلح لسكناكم . أما العساكر فلا يدخلون معكم ، بل ينفصلون عنكم ليذهبوا إلى بركة الحاج ناحية المطرية ، ويمكثوا هناك حتى نشهل لهم احتياجاتهم . فالبلد فى قحط وغلاء ، والعساكر العثمانية منحرفو الطباع ، لا يستقيم حالهم مع الأرنؤدية ، ويقع منهم ما يوجب التعب لنا ولكم . »

فقال على باشا الطرابلسى : « إذا كان الأمر كذلك فإنى أرحل عائداً إلى الإسكندرية » . فأجابه على كاشف : « هذا لا يكون ، وإن فعلتم حصل لكم الضرر » .

قال الباشا : « إن للعسكر عندى ٤٨٠ كيساً ! أحضروها من حسابى معكم ندفعها لهم فينصرفوا إلى بركة الحاج كما قلتم » .

ورجع على كاشف إلى الأمراء ، فرفضوا قائلين : « إما أن يحضر الباشا عندنا فى جماعته وخدمه وحدهم . وينزل بمخيمنا ضيفاً مكرماً ، وإما الحرب بيننا وبينه » .

وأصبح الصباح ، فركب المصرلية بعساكرهم فى طوابير ، وزحفوا على عرضى الباشا من كل جهة ، فأمر عساكره بالمحاربة .. . فلم يتحركوا وقالوا له : « ليس معك فرمان بالحرب ، ولقد رأيت كيف أخذ إخواننا البحرية عن آخرهم ،

ولم تعطنا جامكية ولانفقة ، فلاطاقة لنا بحرب المصريين » .

فاضطر الباشا مرغماً إلى الركوب فى خاصته ، والذهاب إلى المصارونة ، تاركاً خيامه وأثقاله ، فأضافوه فى خيام البرديسى . وحضر كتخدا الجاويشية وكاتب حوالة الوالى وباقى أرباب الديوان ، وذهب بعض خدم الباشا وفراشيه إلى قصر العينى ليفرشوه ويرتبوه وينظموه .

أما عساكر الباشا فقد أمرهم الأمراء بالرحيل تحت حراسة حسين بك الوشاش وصالح بك الألفى ، ليوصلوهم إلى بلبيس شرقية ومنها إلى الصالحية ، وكانت عدتهم ألفين وخمسمائة .

وانتقل على باشا الطرابلسى والأمراء المصرلية إلى منية السيرج ، وطارت الإشاعة بأن الباشا سوف يركب بموكبه إلى قصر العينى على طريق بولاق بعد يومين .

وجمع المحتسب خيول الطواحين لأجل الركبة ، وخرج كثير من الناس إلى جهة بولاق لأجل الفرجة ، وانتظروا فلم يحصل . وقيل إنهم أخروا الباشا .

ثم وصلت التنابيه لاختيارية الوجاقات بالحضور والركوب مع الباشا ، ولكنه لم يصل ، وتواترت الأخبار بأنهم أركبوا على باشا وسفروه إلى جهة بلبيس والصالحية .

وإليك جلية الخبر :

احتفى المصرلية بالباشا ، وأرسلوا له رضوان كاشف ، كتخدا عثمان بك البرديسى ، ومعه هدية ، وألف نصفية ذهب ، وأبلغه السلام ولاطفه . فقال الباشا مسروراً : « أنا منذ قلدونى ولاية مصر قلت للدولة إن أول حوائجى العفو والرضا عن الأمراء المصرلية ، لأن لهم فى عنقى جميلا منذ ما حضرت إليهم هارباً من طرابلس فآوونى وأكرمونى » .

أجابه رضوان كاشف : « إن الأمراء يراعون لك ذلك ، ولا ينسون عشرتهم معك ، وخصوصاً صداقتك لسيدهم مراد بك ، وهذا برغم ما وقع منك من مكاتبة الألبانود والعربان وغيرهم » .

قال الباشا : « هذا شىء مضى وراح ، ونحن أولاد اليوم » .

* * *

مكث على باشا فى عرضى البرديسى بمنية السيرج ، لا يرى من الأمراء الكبار

سوى عثمان بك الخازندار وأحمد أغا شويكار وأرباب الخدم .

وذات ليلة فزع حرس البرديسى لفارس يخرج من العرضى فى جنح الليل ، ويولى هارباً ؛ فجروا خلفه ولم يلحقوه .

واتجهوا إلى الباشا يسألونه عن ذلك فقال : « لعله حرامى أراد أن يسرق شيئاً وخرج هارباً » . ومنذ هذا الحادث ، أجلسوا حول الباشا عدة من المماليك المسلحين ، فسأل عنهم فقيل له : « إنهم جلوس بقصد المحافظة عليكم من السراق » .

ولم يمض وقت طويل على هذا الحادث الليلى ، حتى قبضوا على هجان بناحية البساتين عند المعادى ، فى طريقه إلى قبلى ، ووجدوا معه مكاتبات من الباشا إلى عثمان بك حسن بقنا ، يطلبه للحضور ، ليكون معيناً له على إبراهيم بك والبرديسى والألفى ، ويعده بإمارة مصر ونحو ذلك !

فجاءوا فى اليوم التالى إلى الباشا جماعة وسلموا عليه ، واستأذنوه فى الجلوس فأذن لهم . فجلسوا وهم سكوت ينظرون إلى بعضهم ، فقال على باشا : « خيراً » .

وتكلم أخيراً رضوان بك قائلا : « ألم نصطلح مع حضرة أفندينا وصفا خاطره معنا ؟ »

قال : « نعم »

قال رضوان بك : « هل وقع من حضرتكم لأحد مكاتبة قبل ذلك ؟ »

قال : « لا . »

قال رضوان بك : « لعلكم أرسلتم مكاتبة إلى قبلى ؟ »

قال : « لم يكن ذلك أبداً » .

فأخرج له مكتوباً وناوله إياه ؛ فلما رآه قال : « نعم ، هذا مما كنا كتبناه بسكندرية . »

قال رضوان بك : « يا سبحان الله يا حضرة أفندينا ! لقد وجدناه أمس مع الهجان المسافر إلى قبلى عن طريق البساتين » .

فسكت الباشا الطرابلسى ولم يحر جواباً . . .

فقاموا على أقدامهم وقال رضوان بك : « بيرون أفندم ! »

فقال : « إلى أين ؟ »

فقال رضوان بك : « إلى غزة ، فإنه لا أمان لنا معك بعد ذلك » .

ولم يمهلوه لكلام يقوله ، ولا عذر يبديه ، حتى ولا لمجيء ركوبته ؛ بل قدموا له فرساً لبعض المماليك . فلما رأى الأمراء المستعدين للذهاب معه وقوفاً فى انتظاره ، رجاهم أن يكونوا متباعدين عنه فى الحط والترحال ، فأجابوه إلى ذلك ؛ وسار معه محمد بك المنفوخ ، وسليمان بك صهر إبراهيم بك .

أما أتباع الباشا فركبوا أكاديش الطواحين . وكان الطحانون ينتظرون متى ينقضى الموكب — وهم يظنون أن خيولهم استعيرت منهم لموكب الباشا بالقاهرة — ويأخذون خيولهم . فلما تحقق لهم سفر أعوان الباشا بأكاديشهم بعيداً عن مصر ، طارت عقولهم وذهبوا إلى صيوان البرديسى يشكون إليه عطل مطاحن البلد ؛ فقال لهم : « دونكم خيلكم ، اذهبوا فخذوها ! » فجروا خلف أعوان الباشا ، ومسك كل طحان فرسه ، وأنزل عنها راكبها ، وأخذوها ورجعوا مسرورين بخيولهم .

فركب الأعوان بلطا جمالا ؛ وحجز البرديسى طبلخانة الباشا ، وطقمه . ومهاترته ، وغالب متاعه ، وذهب بها إلى حال سبيله . وقد ركب أمامه حسين بك الافرنجى بعسكره المختصين بطبلهم ، مثل طبل الفرنسيس ، وعلى رأسهم برانيط من نحاس أصفر ، مثل برانيط الفرنسيس ، وهم نصارى وتكرور وأروام . وركب خلف البرديسى طبلخانة الباشا ونوبته ومهاترته يطبلون ويزمرون . ودخلوا على هذا الحال إلى القاهرة .

أما الألفى الصغير ، فركب فى أمرائه وكشافه ليعاقب العربان الذين والسوا مع الباشا ، وهم عرب بلى بالجزيرة . فطرقهم على حين غفلة ، وقتل منهم أناساً ، ونهب مواشيهم ونجعهم ؛ وضرب أيضاً زفيتة وأجهور وعشرين بلداً أخرى ، وأخذ زراعتها ومتاعها .

هذا والقاهرة تنتظر الباشا على الطرابلسى ، المولى على البلد من قبل إسلامبول . وقصر العينى معد لاستقباله ؛ والباشا على لا يصل ، ولا يسمع عنه خبر . . .

إلا هذه المكاتبات التى جاءت من الأمراء الذين ذهبوا بصحبة الباشا مشرقين . فهم يخبرون بموت الباشا بالقرين ! واستيقظت القاهرة على حس المدافع الكثيرة

تضرب بعد العشاء حتى نصف الليل !

يقول الأمراء المصرلية فى مكاتيبهم : « إن الباشا أراد أن يكبسنا بمن معه ليلا ، وقد عرفنا بأمر ذلك من سائس يعرف بالتركى ، حضر إلينا وأخبرنا بذلك ، فتحذرنا من الباشا ورجاله . فلما كبسونا كنا لهم مستعدين ، ووقعت بيننا محاربة قتل فيها عدة منا ، منهم خازندار محمد بك المنفوخ ، وانجرح محمد بك نفسه جرحاً بليغاً . أما الباشا فأصيب من غير قصد ، والليل ليس له صاحب ، فقضى نحبه ، وكان ذلك مقدوراً ، وفى الكتاب مسطوراً . وأنكم ترسلون لنا أماناً بالحضور إلى مصر . . . وإلا ذهبنا إلى الصعيد » .

وهذا كذب مصفى ! فإن الباشا لم يعد يملك حلا ولا عقداً . . ولا كبساً . لم يكن يصحبه من رجاله غير خمسة وأربعين ، وجميعهم محصورون بين عساكر المغاربة من أمام ، والأمراء المصاروة من خلف . فلما وصلوا إلى القرين نزلوا هناك ، ورتبوا مع المغاربة ترتيباً ، مقتضاه أن يعمل المغاربة مع الخدم مشاجرة ، تتجسم وتعظم ، حتى يتضارب الجميع بالسلاح . . .

وتم تنفيذ التدبير فى جنح الليل — والليل ليس له صاحب كما قال هؤلاء السفاحون ! — وقامت الأجناد المصرية من خلف الباشا يضربون ، بينما المغاربة يتضاربون مع الخدم من قدام ، فصار الباشا ورجاله الخمسة والأربعون ، محصورين فى الوسط ، والضرب نازل ، وقد التحموا عليهم بالقتال . ففر من أتباعه أربعة عشر نفساً إلى الوادى ، وثلاثة عشر رموا بأنفسهم — من حلاوة الروح — فى ساقية قريبة .

أما الباشا فضربه أحد المماليك بقرابينته ، وقتل معه باقى الثمانية عشر نفساً .

سقط على باشا الطرابلسى وبه رمق ، ورأى أميراً مصرلياً فقال له : « فى عرضك يا فلان ! إن معى بداخل هذا الخرج كفناً ، أستحلفك أن تكفنى به ، وأن تدفنى ، ولا تتركنى مرمياً ! » . وأعطى الأمير المصرلى لبعض العرب دنانير والكفن . وقال له : « اذهب إلى مكان الموقعة ، وخذ الباشا وكفنه وادفنه فى تربة . » . فقال العربى : « أنا لا أعرفه » ، أجابه الأمير : « ستعرفه فإن له لحية عظيمة من دون من قتل حوله . » ، ففعل الأعرابى .

هذا ما كان من أمر مصرع الباشا الطرابلسى ، وفى مقتلته صورة من جبروت الأمراء المصرلية .

ولم يكن على باشا خير من قتلته ، فقد رد كيده إلى نحره ، وكان ذلك من وبال فعله ، وسوء سريرته . ومما أثر عنه أن قال وهو بالإسكندرية : « إن بلغت مرادى من الأمراء المصاروة وظفرت بهم ، أبحت لكم القاهرة والرعية ثلاثة أيام » . وكان طول حياته فاسقاً ظالماً ، صادر الناس فى أموالهم وبضائعهم ، ورذّل أهل العلم وأهانهم ، فقد كان يسمى الشيخ محمد المسيرى بالمزور ، لأنه رفض أن يوقع على عريضته ، التى حاول أن يدلس فيها على الدولة ويزور خبر مقتلة الإفرنج . وكان إذا دخل الشيخة عليه ، ظل جالساً ، بل واتكأ ومد رجليه فى وجوههم .

وقبل مجيئه إلى مصر ، كان مملوكاً لمحمد باشا حاكم الجزائر ، وأرسله سيده برسالة إلى حسين قبطان باشا بالآستانة ، فقلده قبطان باشا ولاية طرابلس الغرب . وقد استولى على طرابلس ، وأباحها لعسكره ، ففعلوا بها أشنع وأقبح من التمرلنكية ، نهباً وهتكاً للنساء وسبياً للحريم ، وفرد على أهل البلد الفرد ، فثار الناس عليه ، ونزل إلى المركب بما جمعه من الأموال والذخائر ، وأخذ معه غلامين جميلين من أولاد الأعيان ، وهرب إلى الإسكندرية ثم إلى مصر . والتجأ إلى مراد بك فأكرمه وأنزله منزلا حسناً عنده بالجيزة . ثم حج بعد ذلك ، ورآه الحجاج الطرابلسية بالحجاز ، وصحبته الغلامان الجميلان. فذهبوا إلى أمير الحج الشامى — لسبب بسيط هو أن الطرابلسى كان فى حماية أمير الحج المصرى — وعرفوه عنه ، وعن الغلامين وما يفعل بهما . فأرسل معهم جماعة من أتباعه فى حصة مهملة ، وكبسوا عليه ، فوجدوه ومعه أحد الغلامين . فسبه الطرابلسية ولعنوه ، ونتفوا لحيته العظيمة وشوابه الشقراء ، وضربوه بالسلاح ، فجرحوه جرحاً بالغاً ، وأهانوه وأخذوا منه الغلامين .

وعاد إلى مصر وأقام فى منزلته عند مراد بك زيادة عن ست سنوات . ولما حضر الفرنسيس ، قاتل مع الأمراء ، وتغرب معهم فى قبلى وغير قبلى ، ثم انفصل عنهم وذهب خلف الجبل وسار إلى الشام ، ومنها إلى إسلامبول ، حيث طلب ولاية مصر ونالها .

وقد أراد أن يدبر أمراً للمصاروة ، ويصطاد العقاب بالغراب ، فلم تنفعه التدابير ، ولم تسعفه المقادير ، فكان كالباحث عن حتفه بظلفه ، والجادع بيده مارن أنفه .

ولم يعلم أنها القاهرة ، كم قهرت جبابرة .

زبانية عتاة

وردت فى فصل سابق كلمة عابرة تستأهل منى الرد على نفسى وأنا أقول: «ولا يعنينا أمر أولئك الأمراء الجراكسة وأجنادهم» . أحقًّا أن أمر الأمراء الجراكسة لا يعنينى ؟ وهل لا يعنينى أيضاً أمر المماليك البحرية قبلهم ؟

فلنحاول أن نكون صادقين مع أنفسنا ، ونسأل هذا السؤال : متى شعرت ، وأنا أطالع التاريخ المصرى ، بأننى أعيش بين عشيرتى وبنى وطنى من أهل القرون الغابرة ؟ حدث هذا وأنا أطالع التاريخ المملوكى ، ثم ما تلاه بطبيعة الحال . فمهما كان فهمى وإحساسى بحضارة أجدادى الفراعنة ، وجهاد أسلافى المسيحيين ومهما كان إدراكى لمعنى دخول مصر فى حوزة الإسلام ، فإننى لم أحس إحساساً عميقاً بحوادث تاريخى بقدر ما أشعرنى به التاريخ المملوكى . ولا أعرف ماذا يكون إحساس مواطنىّ من أهل الصعيد أو الوجه البحرى ، ولا إحساس مواطنىّ القبط ، وإنما أنا معبر عن نفسى كقاهرى مسلم ، من أسرة قاهرية حتى القرن السابع عشر على الأقل ، ولدت فى أحياء القاهرة التى نسميها المعزية نسبة إلى من أشار ببنائها ، ولم يبق من آثار منشئيها سوى القليل . فالقاهرة القديمة ، التى نشأت فى حاراتها ، هى القاهرة المملوكية . والطابع الغالب على آثارها هو الطابع المملوكى . ثمة بقايا طولونية وفاطمية وأيوبية وعثمانية ، ولكن جو القاهرة الذى غمرنى فى طفولتى ، أحسست به وأنا أطالع تاريخ المماليك ؛ والحياة التى تجيش بها صفحات الشيخ تقى الدين وأبى المحاسن والسيوطى وابن إياس هى حياتى . لأول مرة شعرت حقًّا بأننى أعيش بين عشيرتى وبنى وطنى من أهل القرون الغابرة .

وأعود إلى مذكراتى لإعداد هذا الكتاب فأطالع : « أما الغز فلم آسف على سقوطهم ، لأنه غير كاف فى الحكم على هذه الفئة أن نذكر محاسن الممتازين من سلاطينها وأمرائها ، من أمثال سيف الدين البندقدارى ، والناصر محمد ، وبرقوق ، وقايتباى . ولن أنخدع بآثارهم الجميلة ، ولا بإصلاحاتهم ،

ولا بانتصاراتهم ؛ لأن هذه الطغمة كانت فى مجموعها داعرة سفاحة نهابة ، ولأن مجموع سلاطينها ، على الرغم مما حققوه للديار المصرية من سؤدد ، وما أنشئوه من جوامع ومدارس وخوانق ، لا يمكن أن يفلتوا من لعنة الأجيال على أولئك المستنزفين لدماء الشعب وماله ، المذلين له ، الحريصين على مماليكهم الجلبان والخاصكية والخشداشية والقرانصة ، يقطعونهم الإقطاعات ويفرقون عليهم المغل والرزق والجماكى ، وكأنهم ورثوا مصر بوثيقة شرعية » .

ويروقنى حديث الرحالة « ڤولنيه » ، ذلك الرجل ابن الإنسكلوبيديين والقرن الثامن عشر ، وهو يعلق على ما سمعه من امتداح الجاليات الأجنبية فى مصر لعلى بيك الكبير ، شيخ البلد المملوكى ، الذى استقل بحكم مصر عن الباب العالى فى الربع الأخير من القرن الثامن عشر ، وكان البروفة الأولى لمحمد على باشا ، قال :

« ولا أستطيع السكوت على ملاحظة سمعتها بالقاهرة ، على لسان التجار الأوربيين ، الذين عرفوا حكم على بيك حتى نهايته ، وهم يثنون على حسن إدارته ، وحرصه على العدالة ، وحدبه على الإفرنج ؛ فقد كانوا يتعجبون من أن الشعب المصرى لا يبدى أسفاً على زوال حكمه ، ويتخذون من موقف هذا الشعب ذريعة للحكم عليه بنكران الجميل ، وعدم الثبات على مبدأ .

« ولكن من يتعمق البحث ، يتضح له أن ليس فى الأمر غرابة كما يبدو . ففى مصر كما فى كل البلاد ، ينهض حكم الشعب على مقدار ما يحصل عليه من غذاء وكساء ، وعما إذا كان حاكمه ييسر له أموره ، فيتعلق به ويؤازره ، أو لا ييسرها فيكرهه وينحى عليه باللائمة . وهذا سبيل فى الحكم لا يمكن الطعن فيه بالتحيز أو قصر النظر ؛ فمن العبث أن يتحدث الحكام إلى الشعب بألفاظ عزة الوطن ومجده ، وبأن تشجيع التجارة والفنون والصناعات يقتضى هذا أو ذاك من التضحيات ؛ لأن لقمة العيش يجب أن تسبق كل شىء ، وعندما لا يجد الناس الخبز ، فإن من حقهم أن لا يعترفوا بجميل ، ولا أن يظهروا الإعجاب . ماذا يهم المصريين أن يتغلب على بيك على ثورة الصعيد ، وعلى بلاد الحرمين ، وعلى سورية ، إذا لم تعد عليهم تلك الفتوحات بالإسعاد؟ بل على العكس ، زادت من شقائهم ! لأن تكاليف تلك الحملات أثقلت من أعبائهم . إن التجريدة على

الأراضى المقدسة وحدها تكلفت ستة وعشرين مليوناً من الفرنكات ؛ وخروج الغلال مع أجناد الحملة ، بالإضافة إلى احتكار التجار حركة الغلال ، سببت مجاعة طاحنة ، دامت طوال عامى ١٧٧٠ و ١٧٧١ . فهل أخطأ القاهريون والفلاحون ، الذين يموتون من الجوع ، إذا ما استنكروا التجارة مع الهند، عندما لم تعد هذه التجارة بفائدة إلا على فئة المحظوظين؟ ألم يكن من حق الشعب أن يتعى ويكره الترف الذى يسمح لعلى بيك بدفع خمسة وعشرين ومائتى ألف درهم فى مقبض خنجر ، ، فيسبح الجواهرجية بحمده ، ويشيدون بكرمه ؟ أما يحق للشعب أن يسمى هذا سفهاً . إذ يعتبره المتزلفون حسنة من حسنات على بيك ، والشعب هو الذى دفع ثمن هذا البذخ والجود ؟ وهل من الفضائل أن ينثر امرؤ ذهباً لم يتكلف مشقة فى جمعه ؟ أمن العدالة فى شىء أن يعطى ويمنح محسوبيه ... على حساب الشعب ؟ فليس بمنكر أن معظم أعمال على بيك صدرت عن شهوة المطامع الشخصية والغرور . لا عن مبادئ العدالة والإنسانية ؛ فلم تكن مصر إلا ضيعة له ، ولم يكن أهلها سوى قطيع يتصرف فيه تصرف المالك للأرض وما عليها » .

ثم إننى لا أعرف وصفاً للمماليك أصدق مما وصفهم به ثانى سلاطينهم عز الدين إيبك التركمانى ، فى كتاب إلى سلطان سلاجقة الروم ، يحذره من الأمير علم الدين سنجر الباشقردى ، زعيم المماليك الجمدارية الصالحية ، الذين فروا من وجه إيبك ، ولجأوا إلى سلطان السلاجقة ، قال :

« . . . المماليك البحرية قوم مناحيس أطراف (أى لا يبقون على صحبة إنسان) . لا يقفون عند الأيمان . ولا يرجعون إلى كلام من هو أكبر منهم ؛ وإن استأمنتهم خانوا ؛ إن استحلفتهم كذبوا ، وإن رفقت بهم غدروا . فتحرز منهم على نفسك ، فإنهم غدارون مكارون خوانون ، ولا آمن أن يمكروا عليك » .

فاستدعاهم السلطان السلجوقى وسألهم : « يا أمراء ، مالكم ولأستاذكم ؟ » فتقدم الأمير علم الدين سنجر الباشقردى وقال : « يا مولانا ، من أستاذنا ؟ » قال : « الملك المعز ، صاحب مصر » . فقال الباشقردى : « يحفظ الله مولانا السلطان ! إن كان المعز قال فى كتابه إنه أستاذنا ، فقد أخطأ ؛ إنما هو خشداشنا ،

ونحن ولیناه علینا ، وكان فينا من هو أكبر منه سنًّا وقدراً ، وأفرس وأحق بالمملكة ؛ فقتل بعضنا ، وحبس بعضنا ، وأغرق بعضنا ، فهربنا منه ، وتشتتنا فى البلاد ، فالتجأنا إليك » .

ومع كل هذا ، ومهما استنكر الإنسان تاريخ المماليك الدموى . فإنه لا يتمالك أن يحن إلى لحظات باهرة تدين لهم بها مصر فى تاريخها الطويل : فإن دولة كدولة الظاهر بيبرس البندقدارى الصالحى ، أو الناصر محمد بن قلاوون أو الأشرف قايتباى ، لا يمكن إلا أن تثير فى نفوسنا الإعجاب ، وغير قليل من الزهو ، بأولئك الأجناد المبرزين . حققوا لمصر إمبراطورية شبيهة بإمبراطورية أمنمحعت الثالث . وكان السلطان المملوكى فرعوناً بكل ما تحوى هذه الكلمة من معنى السؤدد والسلطان . وكانت أمور الدولة المملوكية مرتبة منظمة ، وتقاليدها راسخة . وهذا ديوان رسائلها شاهد على كثير من هذه النظم . والشعب المصرى يستضىء ظلال هذا النظام فى زراعاته وتجارته وصناعاته وفنونه . وللجد وقت وللعبث واللهو أوقات ، سواء فى الأعياد القومية الكبرى ، كجبر الخليج ، أو فى الأعياد الدينية ، وأهمها طلعة الحج وعودته ، ومولد النبى .

وكانت متنزهات القاهرة واسعة منتشرة ، تنعكس فيها أفراح الناس على صفحات الماء الذى يملأ فى الفيضان منخفضات الأزبكية وبركة الفيل وبركة الناصرية وبركة الرطلى والخليج الحاكمى الناصرى ، وتسير سفن اللهو والنزهة ، تميد بالمطربين والآلاتية والمغانى . وتتألق بأنوار الفوانيس تزين بها صوارى المراكب ، أو تعلق على أبواب القواطين ، وتتدلى من الطيقان . .

لا تتمالك النفس الشاعرة أن تحس بما كان لهذا العصر من أبهة وفخامة وبهاء ، بملابس السلطان وأسلحته ، وركبته المزركشة ، والقبة تحمل على رأسه والطير ، والأمراء حوله يلعبون بالغاشية ، وأمامه الركبدارية ، يسبقهم الخليفة ، ويسير خلف السلطان الركبدارية ، والقضاة الأربعة ، وأتابك العسكر ، فنائب الغيبة وأمير أخور والدوادار والوزراء ومقدمو الألوف فأمراء المائة فأمراء الطبلخانات ، فأمراء العشروات ، وسائر المماليك ، فى أرديتهم الفضفاضة البراقة ، وعلى رأسهم الكلوتات والقواويق ، يمتطون أصائل الخيل .

وما أكثر المناسبات التى كانت تُتيحُ لأهل القاهرة رؤية المواكب الملونة المضاءة اللامعة : فى طلعة الحج وعودته ، وفى خروج السلطان وجيشه فى التجريدات ، وقد علق الجاليش بالعرضى فى الريدانية ، وعند بركة الحبش ، وفى عودة السلطان من سرحاته للصيد والقنص ، أو فى ذهابه إلى ملاعبه ببر الجيزة وإنبابة .

وحياة القاهرة الصاخبة بالنهار ، المضيئة بالليل ، حول حلقات الذكر ، أو جماعات المستمعين للشاعر ، المتحلقين حول المحبظين والمغزلكين ، يشاهدون التشخيص ، أو أمام الشاشة البيضاء فى الظلام يتابعون أشخاص خيال الظل ، أو حول البهلوانات يرقصون على الحبل ، أو ملاعبى القردة والحواة والمشعوذين .

حتى لحظات الاضطراب ، لم تكن تخلو من رومانتيكية إذا استوحيناها على البعد ؛ عندما ترمح فرسان المماليك من هنا وهناك فى كبكبة وصليل وصهيل ، وعندما تدق الكوسات حربيًّا من القلعة ، ويجتمع الأمراء المخامرون على السلطان فى ميدان الرميلة أو بسوق الخيل ، ويتأهب السلطان بالقلعة للمقاومة ، ومعه مماليك الطباق قرانصة وجلباناً . وتركب المكاحل على أسوار قلعة الجبل ، فتواجهها مكاحل المتآمرين ، ركبت على سطح مدرسة السلطان حسن بسوق الخيل ، وتتبادل إطلاق القنابر . وعندما ينقض فريق منتصر على منازل الفريق المغلوب ، فينهبها ويسبى نساءها ويسطو على عبيدها وسراريها ، أو عندما يقبضون على المماليك الطاربين ، وقد تنكروا فى لباس العرب ؛ زنوط قرع ، واختبأوا فى مساقى الترب .

ويأوى أهل القاهرة إلى بيوتهم وأرباعهم ، ويقفلون أبواب دروبهم وحاراتهم ، بعد أن يخلوا متاجرهم ، وينقلوا متاعهم إلى الحواصل والمخابئ ، منتظرين مرور العاصفة بسلام .

أقول إن استيحاء هذه اللحظات الحرجة على البعد ، قد يحرك بعض الحنين إلى هذا اللون من الحياة الرومانتيكية يقصى عنها الركود والملال والسأم .

لا شك أن القاهرة كانت شديدة القذارة ، مرتفعة العثير ، وأن كلابها السائبة كانت كثيرة ، والأوخام والطواعين كانت متقاربة الوقوع . وكانت روائح القاهرة العفنة بحاجة إلى حرق الكثير من البخور ، والتطيب بالأعطار . والإفكيف

يمكن تصور تلك الرءوس المقطوعة تعلق بالأسبلة والأسوار والأبواب ، وتلك الرمم الموسطة أو المكلبة أو المصلوبة أو المشنوقة تترك أياماً فى عرض الطرقات أمام الرائح والغادى ، ويقول عنها المؤرخ فى برود عجيب : « وبقيت رمته بلا رأس ثلاثة أيام ، وقد جافت وولغت فيها الكلاب » ؟ كيف يمكن تصور هذا فى جو القاهرة الحار سبعة أشهر فى العام ، دون التيقن بأن أنوف أجدادنا زكمتها روائح القمامة والعفونة والجيف فى كل مكان ؟

نحن مع ذلك أقرب إلى التجاوز عن السيئات ، لنذكر حسنات منشئى الخوانق والمدارس والجوامع والبيمارستانات ، الآمرين بنسخ الختم المذهبة — أرأيت مصحف السلطان شعبان ؟ الموقفين الخيرات على معاهد الدرس ودور العبادة ، ومساقى الحيوان ومستشفياته ، القوامين على صناعات جميلة متقنة ، سواء فى البرد والطرز ، أو على النحاس المكفت بالفضه ، أو الفضة المكفتة بالذهب ، والأبنوس المطعم بالعاج ، وخشب الورد المطعم بالأبنوس ، أو صناعة الخراطين للمشربيات والمنابر ، والزجاجين للمشاكى والميناء والفسيفساء .

أولئك السلاطين يحكمون إمبراطورية امتدت حتى نهر الفرات وجبال طوروس شمالا ، وحتى بر اليمن وحضرموت والنوبة جنوباً ، وحتى آخر بلاد برقة غرباً ، وعلى امتداد شاطئ البحر الأبيض من برقة غرباً حتى خليج الإسكندرونة ، إلى الشمال الغربى .

تلك الدولة المنيعة ، التى وطد دعائمها وأوسع فى رقعتها وصد عنها الصليبيين والتتار ، خليط عجيب من الناس ، نشأوا فى دهاس آسيا الوسطى ، وحول بحر قزوين ، وفى بلاد القوقاز ، ووادى نهر القولجا والدون ، وضفاف بحر البلطيق ، وبيعوا أطفالا فى أسواق النخاسة ، وانتهوا إلى خانات الشرق الأدنى ، وخان مسرور بالقاهرة ، لا ليكونوا خداماً وعبيداً ، بل ليربوا تربية قويمة جداً : تبدأ بالقراءة والكتابة وبعض الحساب ، وحفظ القرآن والتثقف بآداب الشريعة ، وملازمة الفروض ، فإذا قاربوا سن البلوغ أخذوا فى تعلم فن الحرب : من اللعب بالنشاب وركوب الخيل ، إلى الضرب بالسيف والطبر والنمجاة ، والصيد والكر والفر . لينتظموا فى سلك جيش عظيم ، يسمح للأفذاذ منهم ببلوغ أرقى مراتب الدولة ،

حتى عرش السلطنة المصرية .

دولة دامت أربعة قرون عزيزة الجانب ، يخطب ودها الديلم والفرس والتتار والسلاجقة والروم والبنادقة والألمانيون والجنويون وسائر الفرنجة ، تحيا فى حدود نظم ومراسيم ثابتة ، إلا فيما يختص بولاية السلطنة ؛ فلم تنجح دولة المماليك الأولى ولا الثانية فى أن تضع نظاماً ثابتاً لوراثة السلطنة . ولا يغرنك أن يتسلطن أبناء قلاوون وأحفاده ، أو محاولة بيبرس تولية أولاده ، فإن أغلب أولئك السلاطين أبناء السلاطين كانوا أطفالا وأحداثاً وغلماناً ، يرى فيهم الأتابكيون وسيلة ميسرة للحكم ، وسلماً يقفزون منه إلى دست السلطنة .

لقد بدأنا رحلتنا عبر التاريخ المصرى بمأساة انهيار السلطنة المملوكية تحت ضربات العثمانيين ، وتابعناهم بعض الطريق فى أول عهد الاحتلال العثمانى ، ويجدر بنا أن نتابع الآن هذه الطغمة الرائعة حتى نهايتها .

* * *

لم تكن المصائب لتأتى فرادى ، فإن ضربة سليم القاضية إنما جاءت فى أعقاب نازلة اقتصادية عنيفة أصابت مصر فى أواخر القرن الخامس عشر ، واستمرت حتى العصور الحديثة ، وربما حتى افتتاح قناة السويس .

فمصر ، التى تتوسط ثلاث قارات ، كانت معبراً من أعظم معابر التجارة العالمية ، وطريقاً من أهم طرق مبادلة المنافع والسلع ، وكانت دولة المماليك تتحكم فى أسواق الشرق والغرب ، يخطب الغرب ودها ما دامت أوروبا فى حاجة إلى الطيب والأعطار والأفاويه والحرير والكتان والجلود والغضار الصينى والأخشاب والمعادن .

ولكن تجارة الشرق عن طريق البحر الأحمر بدأت تتحول إلى طريق رأس الرجاء الصالح ، بعد أن اقتحم البرتغالى فاسكو دا جاما بحر الظلمات إلى البحر الشرقى الكبير ، مستديراً حول الطرف الجنوبى للقارة المظلمة ، بالغاً ماليندى على الشاطئ الشرقى لأفريقيا ، ثم عابراً المحيط الهندى شرقاً إلى قليقوط فى بر الهند .

آذن هذا الكشف بصعود نجم البرتغاليين فى الشرق ، ونجم مصر المتألق فى كبد السماء انحدر إلى الأفول .

وكان ثراء مصر جديراً بأن يجعلها تتلقى الضربة البرتغالية برأس مرفوع ؛

ولو استطاع المماليك الجراكسة أن يخففوا من بذخهم ، وأن يمدوا أرجلهم على قدر ألحفتهم الجديدة ، لتمكنوا من الاستعداد لتلقى الضربة تصيبهم من الشمال على يد الجنكار سليم بن بايزيد آل عثمان .

أما عن المصريين فإننى لا أعرف أن قد ارتفع لهم سعر أو انخفض بزوال دولة المماليك . ذل بذل تداولوه على أيدى الهكسوس والأشوريين والفرس والمقدونيين والرومان والعرب والأكراد والفرغانيين والغز ، وسيواصلون تحمل نير العثمانيين ، فالمماليك من جديد ، فالفرنسيين ، فالأرنؤد ، فالمرابين الأوربيين ، فشركة قناة السويس ، فالإنجليز فالباشوات المصريين .

لن يجد المصريون فى حكم الولاة العثمانيين سوى الإمعان فى نهبهم وسلب أقواتهم وكرامتهم ، حتى ليحرم عليهم صنع رغيف الحنطة التى تعبوا فى إعداد الأرض لها ، وبذرها وريها وجمعها وحصدها ، فالأوامر أن تسلم الغلال رأساً إلى الكشاف والملتزمين .

سوف يهزب الفلاحون من قراهم — للمرة كم ! لا أدرى — أمام جباة الضرائب ومقارعهم وفلقاتهم وسياطهم ، فيضم الكشاف ضرائبهم إلى ضرائب القرية المجاورة .. إن لم يكن أهلها هم أيضاً هاجروا .

ماذا يعنى المصريين أن يعود المماليك إلى سابق عزهم ، وأن يصبحوا من ذوى الحول والطول ، بعد أن يعجب بهم سليمان القانونى فى معسكره أمام رودس ، وينعى على والده سليم أن أراد يوماً قطع دابرهم ؟

سيعود المماليك إلى ما يقرب من سطوتهم القديمة ، وستتحول وجاقات العثمانيين إلى وجاقات مختلطة منهم ومن المماليك ، وسيولى مشيخة البلد ، وإمارة الحج ، مماليك يبططون الباشا إلى صورة فوق الحائط ، أو يسمحون له بأن يندس بينهم لصاً من لصوص منسرهم .

ولن يجدى المصريين استقلال على بيك الكبير عن إسطنبول ، ولا تغلب مملوكه محمد بك أبو الدهب عليه . ولقد طالعنا فى أول هذا الفصل ما قاله ڤولنيه تعليقاً على عهد هذا السلطان المملوكى الصغير .

وأحب أن أنقل لك من تراجم الجبرتى ترجمة واحدة ، حيثما اتفق ، لواحد من المصريين ، وأقابلها بترجمة واحدة ، حيثما اتفق ، لواحد من أمراء المماليك ؛ وستجد أن جميع تراجم الجبرتى ، باستثناء طفيف ، تتخذ صورة شبه واحدة للمصريين ، هى الصورة التى نقدمها للشيخ الحفناوى ، وصورة واحدة للمماليك هى ما نراه فى ترجمة إبواظ بيك :

« ومات الشيخ الإمام ، العلامة الهمام ، أوحد أهل زمانه فى العلم والعمل ، ومن أدرك ما لم يدركه الأول ، المشهود له بالكمال والتحقيق ، والمجمع على تقدمه فى كل فريق ، شمس الملة والدين ، محمد بن سالم الحفناوى الشافعى الخلوتى ، وينتهى نسبه من ناحية أم أبيه إلى الإمام الحسين . ولد على رأس المائة ببلدة حفنا بالقصر ، قرية من أعمال بلبيس . . . (ويسرد الجبرتى هنا قائمة مطالعاته ومذاكراته ودراساته ، من حفظ القرآن إلى حفظ المتون) . . . واجتهد ولازم دروسهم حتى تمهر وأقرأ ودرس وأفاد فى حياته أشياخه ، وأجازوه بالإفتاء والتدريس ، فأقرأ الكتب الدقيقة ، كالأشمونى وجمع الجوامع والمنهج ومختصر أسعد ، وغير ذلك من كتب الفقه والمنطق والحديث والكلام . وأشياخه الذين أخذ عنهم وتخرج عليهم : أحمد الخليفى ، الشيخ محمد الديربى ، عبد الرؤوف البشبيشى ، أحمد الملوى ، أحمد الشجاعى ، عبده الديوى ، محمد الصغير ، البديرى ، الدمياطى ... وكان إذ ذاك فى شدة من ضيق العيش والنفقة ، فاشترى دواة وأقلاماً وأوراقاً ، واشتغل بنسخ الكتب ، فشق عليه ذلك خوفاً من انقطاعه عن العلم . . . وذهب الشيخ إلى البيت ، وكسر الأقلام والدواة . . . واشتغل بعلم العروض حتى برع فيه ، وعانى النظم والنثر ، وتخرج عليه غالب أهل عصره وطبقته ومن دونهم . . . ولم يعان التأليف لاشتغاله بالإلقاء والإقراء . . . فمن تآليفه المشهورة : حاشية على شرح الشنشورى فى الفرائض ، وشرح الهمزية لابن حجر إلخ . . . وكان كريم الطبع جداً ، وليس للدنيا عنده قدر ولا قيمة ، جميل السجايا ، مهيب الشكل ، عظيم اللحية أبيضها ، كأن على وجهه قنديلا من النور ، وكان كريم العين على إحداهما نقطة ، وأكثر الناس لا يعلمون ذلك لجلالته بمهابته ، وكان فى الحلم على جانب عظيم ؛ جاءه تلميذ له ينشد موالا من تأليفه :

قالوا تحب المدمس ؟ قلت بالزيت حار
والعيش الابيض تحبه ؟ قلت والكشكار
قالوا تحب المطبــق ؟ قلت بالقنطار
قالوا اش تقول فى الخضارى ؟ قلت عقلى طار

فضحك الشيخ الحفناوى وقال ممازحاً : أنا لا أحبه بالزيت الحار وإنما :

قالوا تحب المدمس ؟ قلت بالمســـلى والبيض مشوى تحبه ؟ قلت والمقلى

* * *

فى مقابل هذه الإنسانية السمحاء ، اسمع تراجم المماليك أو العثمانيين :

« ومات الأمير الكبير المقدام إيواظ بيك والد الأمير إسمعيل بيك ، وأصل اسمه عوض ، فحرفت باعوجاج التركية إلى إيواظ ، فإن اللغة التركية ليس فيها الضاد . وهو چركسى الجنس ، قاسمى تابع مراد بيك الدفتردار القاسمى ، ومراد بيك ابن رضوان بيك أبى الشوارب . . . ثم وقع الاتفاق على إخراج تجريدة ، وأميرها إيواظ بك ، وصحبته ألف نفر من الوجاقات . . . وخرج بموكب عظيم وتوجه إلى قبلى . . . واتفقوا على إمداده بخمسة من الأمراء الصناجق وهم أيوب بيك ، واسمعيل بيك الدفتردار ، وإبراهيم بيك أبو شنب (وما أعرفش مين بيك بارم ديله ، والأمير الملقب بـ « صنجق ستّه » لأنه حصل على الثراء من زوجته ، وسليمان بيك قيطاس ، وأحمد بيك ياقوت زاده وأغوات الإصباحية) . . . فورد الخبر أن إيواظ بيك تحارب مع العربان وهزمهم . . وفى شوال نزلت جماعة من العربان بكرداسة ، فكبسهم ذو الفقار كاشف الجيزة ، وقتل منهم أربعة وأربعين رجلا وطلع برءوسهم إلى الديوان . . . فتبعهم عبد الرحمن بيك ومن معه من الكشاف فأثخنوهم قتلا ونهباً ، وأخذوا منهم ألفاً وسبعمائة جمل بأحمالها . . . وحضر إيواظ بيك إلى مصر ، ودخل فى موكب عظيم ، والرءوس محمولة معه ، وطلعوا إلى القلعة ، وخلع عليه الباشا ، وعلى أستاداره الخلع السنية . . .

« وقتل إيواظ بيك فى تلك السنة فى الفتنة ، وذلك أنه لما اشتدت الفتنة بين

العرب والينكجرية . . . وبعد أمور وحروب ، وقعت أمور ، يطول شرحها ، مشهورة ، من قتل ونهب وخراب أماكن . . . ووقعت حروب عظيمة بين الفريقين عدة أيام . . . وصار قانصوه بيك يرسل ببورلديات وتنابيه . . . فعندما وصل إليه البيورلدى ، قام وقعد واحتد ، واشتد بينهم الجلاد والقتال ، واجتمع الأمراء والصناجق والأغوات عند قائمقام قانصوه بيك ، ورتبوا أمورهم ، وذهبت طائفة لمحاربة منزل أيوب بيك ، إلى أن ملكوه بعد دقائق ونهبوه . . . وانتهبت بيوت الخارجين ، وبيت محمد بيك الكبير ، وأحمد جوربجى القنبيلى . . . فوصل الخبر إلى إيواظ بيك ورمح خلفهم . وكان محمد بيك أجلس جماعة سجمانية بأعلى السواقى ، لمنع من يطرد خلفهم عند الانهزام ، فرموا عليهم رصاصاً ، فأصيب إيواظ بيك ، وسقط عن جواده ، وحصل بعد ذلك ما حصل من الحروب ، ونصرة القاسمية والعزب ، وهروب المذكورين ، وعزل الباشا ، ودفن إيواظ بيك بتربة أبى الشوارب . . . »

وتأمل قصة المذبحة الأولى للمماليك ، وقد نسبت إلى الباشا العثمانى حمزة : « وقيل إنها من على بيك الذى بالنوسات (وهو على بيك الكبير ، بروفة محمد على باشا) . . . فى ثانى شهر شوال من سنة ١١٧٩ هـ (١٧٦٥ م) ركب الأمراء إلى قره ميدان ليهنئوا الباشا بالعيد ، وكان معتاد الرسوم القديمة أن كبار الأمراء يركبون بعد الفجر من يوم العيد ، وكذلك أرباب العكاكيز ، ينطلقون إلى القلعة ؛ ويمشون أمام الباشا من باب السراية إلى جامع الناصر ، فيصلون صلاة العيد . ويرجعون كذلك ، ثم يقبلون أتكه ويهنئونه وينزلون إلى بيوتهم فيهنئ بعضهم بعضاً على رسمهم واصطلاحهم ، وينزل الباشا فى ثانى يوم إلى الكشك بقره ميدان ، وقد هيئت مجالسه بالفرش والمساند والستور ، واستعد فراشو الباشا بالتطلى والقهوة والشربات والقماقم والمباخر ، ورتبوا جميع الاحتياطات واللوازم من الليل ، واصطفت الخدم والجاويشية والسعاة والملازمون ، وجلس الباشا بذلك الكشك ، وحضرت أرباب العكاكيز والخدم قبل كل أحد ، ثم يأتى الدفتردار وأمير الحج والأمراء الصناجق والاختيارية وكتخدا الينكجرية والعزب أصحاب الوقت والمقادم والأوده باشية والعمقات والجربجية فيهنئون الباشا ويعيدون عليه ، على قدر مراتبهم بالقانون والترتيب ، ثم ينصرفون . فلما حضروا فى ذلك اليوم ، وهنأ الأمراء الصناجق

الباشا ، وخرجوا إلى دهليز القصر يريدون النزول . وقف لهم جماعة وسحبوا السلاح عليهم ، وضربوا عليهم ببنادق ، فأصيب عثمان بيك الجرجاوى بسيف فى وجهه ، وحسين بيك كشكش أصيب برصاصة نفذت من شقه ، وسحب الآخرون سلاحهم وسيوفهم . واحتاط بهم مماليكهم ، ونط أكثرهم من حائط البستان من الجهة الأخرى ، وركبوا خيولهم ، وهم لا يصدقون بالنجاة . وأركبوا عثمان بيك حصانه ، وهو يقول : باب العزب ، باب العزب ، وقد قطع السيف وجهه وحنكه ، وذهبوا إلى باب العزب ، وأنزلوه . فمكث هنيهة ومات ، فشالوه إلى بيته وغسلوه وكفنوه . وانجرح أيضاً إسمعيل بيك أبو مدفع ، ومحمود بيك ، وقاسم أغا ، ولكن لم يمت منهم إلا عثمان بيك . »

* * *

افتح التراجم عند أية صفحة : العلم والدراسة والمتون والصلاح والفتاوى والإقراء تلازم المصريين ؛ والحرب والضرب والغدر والقتل والنهب والعودة بالرءوس المقطوعة والجلود المحشوة بوْ ، تجدها دائماً فى تراجم المماليك والعثمانيين .

ولا تحسبن أن الفريقين يعيشان فى عزلة تامة بعضهما عن البعض ، فهذا الشيخ الحفناوى ، الذى يحب المدمس بالمسلى ، والبيض المشوى والمقلى ، يتداخل بين المتحاربين ، ويحاول منع تجريدة سارى عسكرها حسين بيك كشكش ، تسير إلى الصعيد لمحاربة على بيك الكبير : « يتكلم الحفناوى فى المجلس ، ويفحمهم بالكلام ، ويمانع فى ذلك ويقول : أخربتم الأقاليم والبلاد ، فى أى شىء هذا الحال . وكل ساعة خصام ونزاع وتجاريد . على بيك هذا رجل أخوكم وخشداشكم ، أى شىء يحصل إذا أتى وقعد فى بيته واصطلحتم مع بعضكم ، وأرحتم أنفسكم والناس . وأرسل الشيخ مكتوباً لعلى بيك وبخه فيه وزجره ، ونصحه ووعظه . . . ولم يلبث الشيخ بعد هذا المجلس إلا أياماً ، ومرض ورمى بالدم ، فيقال إنهم أشغلوه وسموه ، ليتمكنوا من أغراضهم . »

* * *

« وذهب حسين بيك كشكش ومماليكه إلى طندتا وكرنكوا بها ، وبعد قتال عنيف ، يؤمن محمد بيك أبو الدهب الجماعة ، ثم يقتل منهم حسين بيك كشكش وخليل بيك السكران ، ثم حسن بيك شبكة ، ويستأمن خليل بيك ومن معه فى

ضريح السيد البدوى، ثم ينفون إلى الإسكندرية ، وهناك يخنق خليل بيك ، ومن معه . . . وتعود تجريدة محمد بيك أبو الدهب إلى مصر ، وتدخل من باب النصر ، وأمامها رءوس القتلى محمولة فى صوان من فضة ، وعدتها ستة : حسين بيك كشكش ، وخليل بيك السكران ، وحسن بيك شبكة ، وحمزة بيك ، وإسمعيل بيك أبو مدفع ، وسليمان أغا الوالى . والخدم ، حاملو الصوانى ، يقولون : صلوا على النبى ! »

تلك هى الصورة الحقة لتاريخ مصر فى عهد المماليك والعثمانيين : المصريون أهل العلم والمعرفة والحضارة والصناعات والحرف والزراعة والتجارة ؛ والأجانب قطاع طرق سلابون نهابون . المصريون يعنون بالبناء والخلق والإبداع ، بالفن والصناعة والفكر والعلم ؛ وغزاتهم الأجانب عنايتهم جمع الأموال ، وضرب السكة فيما فيه فائدة الولاة والأمراء ، والفتن حول السلطة والنفوذ ، والاستيلاء على الأرض .

ما أبدعها صورة للمقابلة بين المصرى وحكامه الأجانب : ترجمة الشيخ الجبرتى فى مقابل ترجمة إيواظ بيك !

* * *

ولقد ظننتنى بلغت أسفل سفلين إبان الحكم العثمانى والسطو المملوكى وأنا أطالع الجبرتى ؛ سئمت نفسى وعافت أخبار القاسمية والفقارية ، وعلى بيك القازدوغلى ، ومحمد بيك بارم ديله ، وإبراهيم بيك سنجق ستّه .

وحسبت أن بونابرت وجنود الجمهورية الأولى قضوا نهائيًّا على أولئك الطغام ، فإذا الطغام غول كالهيدرا ، ما إن تقطع رأسها إلا وينبت مكانها رأسان .

فما إن عادت أجناد العثمانية ، يظاهرهم البريطانيون جيشاً وأسطولا ، حتى بليت مصر بألوان جديدة من الطغام والظلمة . ولعلك تذكر أن من بين فرق الجيش العثمانى ، الذى حرر مصر من الفرنسيين ، شرذمة من الأرنؤد يقودها ضابط برتبة سرششمه (أى بنباشى) ، اسمه محمد على ، جاءت من الروملى لتؤكد لشعب مصر أن ما ذاقوه من هول وإذلال وتقتيل لم يكن شيئاً مذكوراً ، وأن الوجاقات السبعة الكرام كانت البرد والسلام بالقياس إلى وجاق الأرنؤد هذا .

وسيعود الباشوات بفرماناتهم وبيولردياتهم ، وسيحمل أحدهم للمصريين هدية تهدى ، وبشرى بالحكم الصالح : طغمة الدلاة ذوى الطراطير السوداء ، جماعة من الأبالسة سابت من جهنم ، شرذمة جمعت ، فأوعت ، من حثالات المتاولة والأكراد ، ومن مناسر القتلة وقطاع الطرق ، ومن كل عات فاسق لفظته مجتمعات الشرق الأدنى ، التى لم تكن هى ذاتها نماذج باهرة للفضائل !

وإنى أعتذر هنا إذ أختم على ذلة الشعب المصرى بأنكى وأفظع الوصمات ، فأمر هؤلاء الدلاة لن يقف عند السطو والنهب والسبى والفسق العلنى ، بل سنسمع أن أولئك البلطجية كانوا « يلوطون فى الرجال الاختيارية » ! . . . ولعلك تعرف معنى الرجل الاختيار ؟ فهو شيخ جاوز الخمسين أو قارب الستين ، اختلط البياض بسواد لحيته ، وطلعت على جبينه زبيبة الصلاة سمراء من غير سوء !

وتتصادم هذه الحثالات البشرية وتتطاحن ، ويقتلون مقدميهم ورؤساءهم ، بل يستديرون على الباشا الذى جلبهم فيعدمونه الحياة ، قبل أن يرسلهم جام غضب على أعدائه . . . ومحكوميه .

فى هذا المعترك اجتهتمى ، وذلك الهول والبغى ، يعيش رجل واحد ، تطق عيناه بشرار القسوة ، وتتدحرج مقلتاه كأنهما عيون النمر والنور . لاشك فى ذكائه وقدرته على تركيز جهوده نحو هدفه الواحد ؛ فهو يضع كل ما وهبته الطبيعة من قوة وحيلة ، وكل ما أفاءت عليه البيئة والمنبت ، فى خدمة غرضه الأوحد : ولاية مصر ، ثم الاستقلال بها عن الآستانة ، كما فعل على بيك الكبير .

مع أنه ، كما يقول الجبرتى ، من الأراذل الأصاغر فى دولته ، ممن لا تستظر لهم ولاية ، حتى من الولايات التى يعين لها حامل طوخ أو طوخين ، بله ولاية مصر التى لا يتقلدها سوى باشا من ذوى الثلاثة أطواخ . هذا الرجل هو تاجر الدخان الألبانى ، الجندى المغامر ، بطل التاريخ المصرى الحديث ، محمد على سرشمه ، على سن ورمح .

الوحيد الذى لم يفقد رشده فى هذا الخضم العفن ، فهو البارد حساً ، يثير الجنود على الباشا آناً ، وعلى المماليك آناً آخر ، ويسعى بين المماليك بالوقيعة ، متلمساً كل وسائل الإغراء والتهديد .

ولعل أكبر درس تعلمه فى المدرسة الوحيدة التى طرق أبوابها—مدرسة شيخة، رب الملاعب — هو طريقة اجتذاب المعممين المصريين ، وعلى رأسهم ذلك الرجل الطيب أكثر من اللازم ، كبير النفس نبيل المحتد ، السيد عمر مكرم ، نقيب الأشراف بالديار المصرية .

ومهما استغلق الأمر على أغبياء الباب العالى ، فلا أقل من إدراكهم أن صنفاً واحداً من الرجال يمكنهم أن يركنوا إلى رأيه بمصر — لأنه من جنس لا يصلح لرئاسة الجند ولا للولاية — ألا وهو صنف المعممين؛ فمهما كان طلاب هؤلاء من الدنيا فإنهم ، بعد ، رجال صلاح ودين ؛ ومحمد على يعرف رجال دولته الفعلية جيداً ، يعرف تهالكهم على المال ، وجريهم وراء الرشوة ، وقبوطا مع الغطرسة . ولكنه يعلم أيضاً أن فيهم شيئاً من الميل نحو الشيخة المصريين. سيجىء وقت يستطيع فيه شراء رجال دولته بذهب المعز ، كما سوف يعرف كيف يشهر على دولته فى اللحظة المناسبة سيف المعز . أما فى الآونة الحاضرة فلا مال عنده يهديه ؛ وهو أحوج ما يكون إلى أن يجيئه المعممون بولاية مصر على طبق ؛ فجاءوا بها إليه فى مكبة فاخرة ، حملها إليه الرجل الطيب القلب ، الكريم ابن الكرام ، السيد عمر أفندى . وقبل أن تبرد الهدية فى صحنها الفاخر ، كان الغادر قد بلغ غرضه ، فكافأ نقيب الأشراف . . . بالنفى !

ومحمد على يصالح المماليك ليؤليهم على الألفى الكبير ، ويستعمل على هذا عثمان البرديسى ، ذلك « الممخرق الغشوم » . وكان محمد على والألفى — على حد قول محمد على نفسه — يلعبان على الحبل كبهلوانين . استطاع البهلوان الألبانى أن يشيط طيخة البهلوان المملوكى بالدس والوقيعة ، مستغلا فى ذلك حسد البرديسى ، وغيرة الأمراء من « عظمة الألفى وتعاظمه » .

وكان الألفى قاب قوسين أو أدنى من تملك مصر ، مستقلا عن إستنبول ، بمعونة الإنكليز . فيرسل محمد على تجريدة عظيمة لمحاربة الألفى . فيها جميع عساكر الدلاة — هواة الرجال الاختيارية ! — وجميع الأرنؤد ، برئاسة حسن باشا طاهر ، وبها أتراك ومغاربة وغير ذلك ، فيكسرهم الألفى شر كسرة . ولو حرص أن يطارد المغلوبين لأخرجهم جميعاً من القاهرة على وجوههم . ولكن

مدينة دمنهور امتنعت على الألفى ، وكان قصده أن يجعل منها معقلا يقيم فيه حتى تأتيه النجدة الإنكليزية الموعودة . كما أن بعض إخوانه وخشداشيه خذلوه ، فاضطر أن يرحل عن البحيرة بجيوشه ، ومن معه من العربان ، حتى وصل إلى الأخصاص . فنادى محمد على باشا على العساكر بالخروج ، فخرجوا أفواجاً بالليل والنهار ، حتى بلغوا ساحل بولاق ، وعدوا إلى بر إنبابة ، وجيشوا بظاهرها .

فلما وصل الألفى إلى كفر حكيم ، وانتشرت جيوشه بالبر الغربى ، فيما بين إنبابة والجيزة ، ركب محمد على وعساكره ، ووقفوا على ظهور خيولهم ، واصطفت الرجالة ببنادقهم وأسلحتهم . ومرّ الألفى حيالهم فى هيئة عظيمة ، وجيوش تسد الفضاء ، وهم مرتبون طوابير ، ومعهم طبول ، وصحبته قبائل العرب من أولاد على وعرب الهنادى والشرق ، فى كبكبة مروعة .

رأى محمد على ذلك فتعجب وأخذ يقول عن الألفى : « هذا طهماز الزمان والا إيش يكون ! » . ثم يأمر الدلاة والخيالة بالتقدم ، ويرغبهم بالمال الكثير ، فلا يتقدمون . واستمر الألفى سائراً فى جيوشه حتى بلغ إلى قرب قناطر شبرامنت ، فنزل على ربوة هناك ، وزاد به الهاجس والقهر .

ماذا حدث ؟ لماذا لم يهجم الألفى على تلك الأجناد المرتزقة فيقتحمها إلى القاهرة ؟ أيريدنا الجبرتى أن نفهم بأن عين الذئب الغادر أصابت طهماز الزمان ؟

الواقع أن الألفى لم يكن متمتعاً بصحة كاملة ، وأنه فى ذلك اليوم اتجه ببصره الزائغ نحو الضفة الأخرى من النيل ، وهو يرى القاهرة أمامه بمآذنها العديدة ، من قناطر شبرامنت ، وأخذ يقول :

« يا مصر ! انظـــرى إلى أولادك حولك مشتتين متباعـــدين مشردين . لقد استوطنك أجلاف الترك واليهود ، وأراذل الأرنؤد ، وصاروا يقبضون خراجك ، ويحاربون أولادك ، ويقاتلون أبطالك ، ويقاومون فرسانك ، ويهدمون دورك ، ويسكنون قصورك ، ويفسقون بولدانك وحورك «وبرجالك الاختيارية؟ » ويطمسون على بهجتك ونورك . . . »

ولم يزل يردد هذا الكلام وأمثاله ، حتى تحرك به خلط دموى — وقيل أصيب الكوليرا ، وهذا غير معقول — فتقايأ دماً ، وعرف أن قد دنت نهايته ، فقال :

« قضى الأمر ! وخلصت مصر لمحمد على . وما ثم من ينازعه ويغالبه . وجرى حكمه على المماليك المصرية ، فما أظن أن تقوم لهم راية بعد اليوم » .

ثم جمع مماليكه وأوصاهم بالألفة ، وحذرهم من التفاشل . ومن مخادعة عدوهم . ثم أوصى إذا مات أن يحملوه إلى وادى البهنسا ، ليدفن بجوار قبور الشهداء .

وهذه الفكرة الإسلامية العميقة تدهشنى من أولئك المماليك السفاحين ، الذين ولدوا فى أرض غير إسلامية : أن يذكر الألفى العرب الأولين ، وقبور من استشهد منهم فى قتال جيش عمرو بن العاص ضد دوق الفيوم فى وادى البهنسا !

ولكن المؤرخين قد اتفقوا على أن المماليك كانوا يجمعون المتناقضات فى خلقهم . فهم أهل صلاح وتمسك بالفرائض والسنة ، فيما يشبه سلوك المجرمين المحترفين فى الصعيد ، الذين يصلون العشاء . ثم يجوسون فى الظلام لتقليع زراعة ، أو إزهاق روح ، مقابل مبلغ من المال . وقيل بأن أحدهم أخذته الشهامة فقال لامرأة فقيرة تطالبه بأخذ ثار : « طيب روحى يا وليه ، حاجتلو لك لوجه الله ! »

ولما عرف محمد على بموت الألفى قال : « طابت لى مصر . وما عدت أحسب لغيره حساباً » . وألبس المبشر فروة سمور ، وأجزل له العطاء ، وأمره أن يركب بالحلقة ، ويشق القاهرة ليراه أهل البلد ، ويسمعوه معلناً لنهاية الألفى .

طابت له مصر حقاً . ولأولاده ، وأعقابه من بعده ، ولم يعد هو . أو هم ، يحسبون لأحد حساباً ، إلا للفرنسيين أيام سعيد وإسماعيل ، وللإنجليز منذ عام ١٨٨٢ حتى جاءتهم ساعة الحساب على أيدى أولاد الفلاحين والصعايدة ، ذات فجر من شهر يولية سنة ١٩٥٢ .

طابت له مصر ، وانقض على المماليك مرتين ، كانت الأولى بروقة صغيرة للثانية ، عندما دخلوا القاهرة بحجة الاشتراك فى موكب جبر الخليج ، فما انحشر موكبهم فى شارع النحاسين ، حتى انطلق الرصاص يدوى من النوافذ والأسطحة والقيعان ، وهرب من استطاع منهم الهرب إلى البرقوقية ، وهناك دخل وراءهم أجناد محمد على ومسكوهم وقتلوهم .

أما فى المرة الثانية ، وهى الأخيرة ، فقد دعاهم للاحتفال بسفر ابنه طوسون

لمحاربة الوهابيين . ثم عرف كيف يتصيدهم واحداً واحداً فى منحدر باب القلعة ، يمطرهم أرنؤده بالرصاص ، ويأخذونهم بالقتل من كل جانب . فلا هم قادرون على التقدم ، وقد أقفل باب القلعة ، ولا هم يستطيعون التأخر وقد اختلط حابلهم بنابلهم فى الممر الضيق .

وفى نفس اليوم كانت أوامره قد صدرت إلى مشاعليه بقتل كل من يجدونه من المماليك فى أنحاء البلاد ، حتى تمكن من القضاء على نيف وألف مملوك ، وبينهم أكثر أمرائهم .

ويقال بأن عدد من ذبح بالقلعة كان نحو ثمانين وأربعمائة أمير مملوكى وأتباعهم . وفى رواية أنهم كانوا أكثر من ذلك ، ماتوا عن آخرهم إلا أمين بك الذى تسلق السور وهرب إلى الشام .

وكانت تلك نهايتهم كقوة محاربة وكحزب سياسى ، وبذلك حقق محمد على ما لم يحققه سليم العثمانى فى مطالع القرن السادس عشر ، ولا بوتابارت الكورسيكى فى سلخ القرن الثامن عشر .

« طابت لى مصر وما عدت أحسب لغيره حساباً »

وله أن يصبح سوط عذاب وأس الرزايا ، يليت به مصر . وستروّأ بأسرته كابراً عن كابر . طوال القرن التاسع عشر ، وإلى عامين بعد انتصاف القرن العشرين .

قال الكونت دى سان فريول . من كبار الزائرين الفرنسيين لمصر ، فى خطاب خاص إلى أهله بفرنسا . يصور حالة البلاد فيما بين عامى ١٨٤١ و ١٨٤٢ [وتاريخ الخطاب ٤ يولية سنة ١٨٤٢] :

« ذرعت مصر طولا وعرضاً . وأحسبنى مستطيعاً التوكيد بأن الشمس لا تطلع على شقاء أو تعاسة أشد مما يوجد بهذه الجنة الأرضية . . . ولقد هبط تعداد البلاد بمقدار الخمس . بفضل نظام فى الحكم لحمته استغلال الفرد ، وسداه السطو المنظم » .

وإذا أردت أن تعرف تفاصيل استغلال الفرد . وبعض هذا السطو المنظم ، فاقرأ الجزء الرابع من تاريخ الجبرتى . أو طالع ما كتبه الدبلوماسى البريطانى

باتون ، وقد خبر ذلك العهد عن رؤية ومشاهدة .

مات الألفى فباض محمد على وصفر ، واستدار لبقية المماليك ، يقضى عليهم بطريقة وحشية لا يمكن تبريرها ، من أية ناحية إنسانية .

* * *

ولقد حانت اللحظة التى نتابع فيها نهاية المماليك بعد المذبحة ؛ لأن من حق سلاطين مصر علينا ، من حق شجرة الدر وبيبرس وقلاوون وأبنائه ، وبرقوق وقايتباى والغورى وطومان باى ، أن يعرف الجيل الحاضر خاتمة مماليك الصالح أيوب ، ومن جاء بعدهم ، الذين حكموا مصر اسماً وفعلا حتى الغزو العثمانى ، وفعلا حتى موت الألفى ومذبحة القلعة ؛ أى من عام ١٢٥٠ م حتى عام ١٨١١ م .

والجبرتى ، الذى ننقل عنه الصور النهائية للمأساة ، كان كارهاً لهؤلاء المماليك القتلة الفاسقين . بيد أنه لا يملك من إبداء الأسف على ما آل إليه حالهم . فهو فى ذلك ، وفى غيره ، إنسان بكل ما فى هذه الكلمة من معنى أخلاقى رفيع قال :

« وفى منتصف رمضان سنة ١٢٣٢ [١٨١٦م] وصلوا برمة إبراهيم بيك الكبير — زميل مراد بيك — من دنقلة . وذلك أنه لما وصل خبر موته ، استأذنت زوجه ، أم ولده ، الباشا فى إرسال امرأة تدعى نفيسة لإحضار رمته . فأذن بذلك ، وأعطى المسفرة ، فيما بلغنا ، عشرة أكياس ، وكتب لها مكاتبات لكشاف الوجه القبلى بالمساعدة . وسافرت ، وحضرت به فى تابوت ، وقد جف جلده على عظمه ، لتحافته ؛ وذلك بعد موته بنحو ستة شهور . وعملوا له مشهداً ، وأمامه كتابة ، ودفنوه بالقرافة الصغرى عند ابنه مرزوق بيك » .

ولقد سبق ذلك أن حضر نحو العشرة أشخاص من الأمراء المصرلية البواقى ، فى حالة رثة وضعف وضيم واحتياج ، وكانوا أرسلوا إلى محمد على باشا يطلبون الأمان . كما حضر بعدهم طائفة من بواقيهم من دنقلة إلى بر الجيزة ، وهم نحو الخمسة وعشرين شخصاً ، وملابسهم قمص بيض لا غير ، فأقاموا فى خيمة ينتظرون الإذن .

ويعود الجبرتى إلى تلخيص ما جرى على المماليك من العوادى ، وذلك فى نهاية ترجمته للأمير إبراهيم بيك عين أعيان أمراء الألوف المصريين :

« عائوا فساداً إلى أن تحرك عليهم حسن باشا الجزايرلى عام ١٢٠٠ ، وساعدته الرعية ، وخرجوا من المدينة إلى الصعيد ، وانتهكت حرمتهم . ثم رجعوا فى سنة ١٢٠٦ إلى إمارتهم ودولتهم ، وعادوا إلى حالتهم الأولى وأزيد منها فى التعدى ؛ فأوجب ذلك ركوب القرنساوية عليهم ؛ ولم يزل الحال يتزايد . والأهوال يتلو بعضها بعضاً . حتى انقلبت أوضاع الديار المصرية . وزالت حرمتها بالكلية . وأدى الحال بالمترجم [إبراهيم بيك] إلى الخروج والتشتيت والتشريد ، هو ومن بقى من عشيرته ، إلى بلاد السودان ، يزرعون الدخن ، ويتقوتون منه ، وملابسهم القمصان التى يلبسها الجلابة فى بلادهم ؛ إلى أن وردت الأخبار بموته فى شهر ربيع الأول من سنة ١٢٣١ .

« وفى أواخر ربيع الثانى من العام نفسه ، حضر شخص يسمى سليم كاشف من الأجناد المصرية ، مرسلا من عند بقاياهم من الأمراء وأتباعهم ، الذين رماهم الزمان بكلكله . وأقصاهم وأبعدهم عن أوطانهم ، واستوطنهم دنقلة من بلاد السودان . يتقوتون مما يزرعونه بأيديهم من الدخن ، وبينهم وبين أقصى الصعيد مسافة طويلة . نحو من أربعين يوماً ؛ وقد طال عليهم الأمد ، ومات أكثرهم ومعظم رؤسائهم . . . وبقى ممن لم يمت منهم إبراهيم بيك الكبير ، وعبد الرحمن بيك ، تابع عثمان بيك المرادى إلخ . . . وبواقى صغار الأمراء والمماليك . وقد كبر سن إبراهيم بيك وعجزت قواه ووهن جسمه . فلما طالت عليه الغربة ، أرسلوا هذا المرسل بمكاتبة إلى الباشا (محمد على) يستعطفونه ، ويسألون فضله . ويرجون مراحمه ، بأن يتعم عليهم بالأمان على نفوسهم ، ويأذن لهم بالانتقال من دنقلة إلى أية جهة من أراضى مصر يقيمون بها ، ويتعيشون فيها بأقل العيش ، تحت أمانه ، ويدفعون ما يجب عليهم من الخراج الذى يقرره عليهم ، ولا يتعدون مراسمه وأوامره .

« فلما حضر وقابل الباشا ، تكلم معه ، وسأله عن حالهم وشأنهم ، ومن مات ومن لم يمت منهم ، وهو يخبره .

« ثم أمره بالانصراف إلى محله الذى نزل فيه ، إلى أن يرد عليه الجواب ، وأنعم عليه بخمسة أكياس . فأقام أياماً حتى كتب له جواب رسالته ، مضمونها

أنه أعطاهم الأمان على أنفسهم بشروط شرطها عليهم ، إن خالفوا شرطاً واحداً ، كان أمانهم منقوضاً ، وعهدهم منكوثاً ، ويحل بهم ما حل بمن تقدم منهم » .

ويذكر الجبرتى سبعة من الشروط التى سمع بها ، ثم يقول :

« فسبحان المعز المذل ، مقلب الأحوال ومغير الشئون ! فمن العبر أنه لما حضر المصريون [يقصد المماليك المصرلية] ، ودخلوا مصر بعد مقتل طاهر باشا ، وتآمروا وتحكموا ، فكانت عساكر الأتراك فى خدمتهم ، ومن أرذل طوائفهم ، وكانت علائفهم [علائف الأتراك] تصرف عليهم من أيدى كتابهم [كتاب المماليك] وأتباعهم . وإبراهيم بيك هو الأمير الكبير ، وراتب محمد على باشا هذا من الخبز واللحم والأرز والسمن الذى عينه له إبراهيم بيك من كيلاره ، نعوذ بالله من سوء المنقلب ! »

وفى مراسيم استقبال الباشا محمد على لقنصل إنجلترا ، يصف پاتون ، مساعد القنصل ، منظر استقبال الباشا للمفوضين الأجانب وصفاً دقيقاً ، ثم يلتفت إلى جانب من البهو الكبير ، فيرى آخر المماليك واقفاً مع خدم الديوان ، وقد أحنت الشيخوخة ظهره ، ولبس عمامة كبيرة ، وقفطاناً أحمر ، أثراً من آثار العز الدارس . ويستحضر پاتون فى ذهنه أطياف مراد بيك وإبراهيم بيك والصراع بينهما وبين يونابرت وكليبر .

ونستحضر نحن أطياف الظاهر بيبرس وقطز وفارس الدين أقطاى وقلاوون والناصر محمد وقايتباى ، أولئك الذين دوخوا فرسان الصليبيين ، وإلخانات التتار ، وخطبت ودهم جمهوريات البنادقة والأمالفيين والجنوفيين وأمبراطرة بيزنطة .

الهوان بعد السلطان ، والذلة بعد العز ! فهل يليق أن أضيف إليها صورة المماليك وقد استحالت إلى كرنفال كنا نراه فى طفولتنا أمام زفة المظاهر والعروس ؟ وهى صورة « ملك الزمان » يركب أكديشا ، ويلبس قاووقاً ، كما صورتها فى فصل « ملك الزمان » من كتاب « سندباد عصرى » . أى أن ملابس التشريفة المملوكية كانت قد انتهت إلى مخازن الأكسسوار بشارع محمد على والداودية .

ولا أنفك أفكر بصورة فى متحف « اللوفر » للمصور دافيد ، تمثل القائد البيزنطى بليزاريوس ، حامى ملك يوستنيانوس ، فى صورة شيخ كفيف يستجدى

المارة . ووقف بين ساقيه حفيده الصغير ، يمد ذراعيه بخوذة القائد ، ويتلقى الإحسان من يد عابرة سبيل . ويظهر أن لا أساس في التاريخ لهذه النهاية المحزنة لقائد من أحسن قواد بيزنطة ، حماها من جيوش كسرى أنو شروان ، وانتصر على الفاندال في أفريقيا . وخلص روما ونابولي ورافينا وسردينيا من القوط الشرقيين . وحمى القسطنطينية من الهون . ولكن شناعة الشائنين ، وغيرة الإمبراطور يوستنيانوس ، بتحريض الإمبراطورة تيودورا . أودت به .

وحتى لو صدقت حكاية استجداء بليزاريوس . فلم تكن سوى مأساة رجل واحد ؛ وهذه مأساة مجموعة بشرية كبيرة . بدأت من لاشيء ، وفدت على مصر من أسواق النخاسة بالشرق الأدنى ، ومن وراء سيحون وجيحون ، وجبال كردستان والقوقاز وأودية الفولجا بأرض قوبان . ومن الأناضول والبلقان وضفاف البحر الأسود وبحر أزوف وبحر قزوين ، وقيل من شواطئ البلطيق أيضاً ، وبدءوا خطاهم إلى المجد من خان مسرور إلى دكة المماليك . سوق الرقيق الأبيض الكبير بالقاهرة ، وحكموا أكبر إمبراطورية مصرية عرفها التاريخ بعد إمبراطورية أمينحتب الثالث ، إمبراطورية واسعة الأرجاء ذات موقع جغرافي في الدرجة الأولى من الأهمية الحضارية والاقتصادية والسياسية . رأسها ودعامتها بلد واسع الثراء ، لا بأرضه ونيله وشمسه وزراعته وصناعاته وتجاراته فحسب ، بل بشعب من أعرق الشعوب حضارة ، وأميزها شخصية ، وأقدرها على الحياة .

ولدى

« آهاه ويا أمهات الناس ! من لى بمن يعيد إلى ولدى !
سافر مع العسكر إلى بلاد العثمانلى ، انتزعوه من بين أحضانى ،
حملوه السلاح قسراً ليحارب عدواً بعيداً ، فى بلاد نائية .
غادرتنا وهو يبكى ؛ فارق زوجته الشابة تحمل طفلها ، وهو يبكى ؛
حمل قرابينه على كتفه ، ومشى فى الصفوف مع رفقائه ؛
تبعناه يوم رحيل الأورطة ، ورأيناه يخفف السير فى منعرج الطريق ،
يزودنا بنظراته الخاطفة ، آخر نظراته ، وهو يودعنا إلى الأبد ،
ثم اختفى !
ماذا دهاه ؟ ماذا جرى له ؟
لم أسمع بخبره حتى عاد رفقائه ، ولم يعد معهم :
« أين ولدى ؟ »
« ولدك يا غلبانة ، سقط صريعاً بأيدى العدو ،
« هناك بعيداً فى البلاد النائية . »

* * *

آهاه ويا أمهات الناس ، من يعيد إلى ولدى ؟
مات ولدى ولم أكن بجانبه ،
لا أنا ولا زوجته الشابة ،
مات ولم يحن عليه مخلوق يرخى جفونه !
يا أمهات الناس ! من يعيد إلى ولدى ،
ولدى !

* * *

وأنا من يدلنى على أصل هذه الأنشودة الحزينة التى كان يرددها الشعب المصرى تحت حكم عباس الأول ، بعد عودة الجيش المصرى من محاربة المسكوف

على ضفاف نهر الطونة ؟ فأنا أترجمها عن لغة أجنبية ، بلغة فصحى ، لم تكن لغة الأغنية الشجية .

ثم هل حان الوقت لنصحح التاريخ ؟ وهل ما زلنا نخجل من الإشارة إلى ما كان يحدث إلى عهد قريب منا . عندما كان الأهالى يشقون الجيوب . ويولولون على أبنائهم وقد « راحوا الجهادية » ؟ أليس الأولى من الخجل . أن نعرف الحقيقة ، والعلة التى جعلت الشعب المصرى يبكى أبناءه المجندين ؟ سوف تفهم وترثى معى أشد الرثاء للشعب المصرى .

فالناس كانوا على حق فى عويلهم على أولادهم «فى الجهادية » ؛ استمع إلى هذه الصفحة من تاريخ مصر . كتبها أديب من أصل سويسرى اسمه شارل ديدييه ، أقام بمصر أيام عباس الأول وسعيد . وترك لنا كتاباً عنوانه « ليالى القاهرة » . جاء فى الصفحة الثامنة بعد الثلاثمائة من طبعة باريس عام ١٨٦٠ ، ما يلى :

« حان الوقت لأحدثكم بأمر الجهادية فى مصر ، وكيف نظمها محمد على وحفيده عباس . الذى لم يحتفظ من أعمال جده إلا بأشدها نكراً وسوءاً . وما تزال شئون الجهادية تجرى على هذه الوتيرة إلى اليوم . تحت حكم « المصلح العظيم » سعيد .

يجند الناس بمقتضى نظام جائر تثور له النفوس . فالتجنيد هنا عملية سطو ضارية . تقوم بها عصابة من الباشى بوزوق اختيروا لهذه المهمة على أساس استعدادهم لها ، وخلو قلوبهم من أى أثر لمشاعر الإنسان .

تنزل هذه العصابة بالقرية المسالمة نزول الجوارح والضوارى على الحيوانات الأليفة ، فتضرب عليها حصاراً وثيقاً لا ينجو منه إنسان . . . وتعيش على حساب أهل القرية حسب ما يحلو لها ، وتقرر على القرية العدد المطلوب للجهادية من شبابها الأقوياء ، وشيخ البلد هو المؤكل بتحرير قوائم المجندين .

فأول ما يفعله هذا الشيخ . هو إبعاد أسماء أولاده . وأولاد أقربائه ، من القوائم ؛ فأولاد أحبائه ومحسوبيه ، حتى لا يتبقى فى القائمة سوى أسماء الغلابة من عباد الله .

ونظارة الجهادية لا تعنى بنوع المجندين ، إنما يهمها العدد المحدد من الأنفار ... وإذا اكتشفت تلاعب شيخ من مشايخ البلاد ، أو اتضح لها تغاليه فى الإعفاء ، فإن الجهادية تفصل فى الأمر ... بفصل رأس الشيخ عن جسده ، ليذهب فى المشايخ مثلا .

لن يحشد إذن أبناء الأعيان فى سلك الجهادية ، والبركة فى شيخ البلد ، ومالأته لهم ؛ هذا إن لم تكن فى حكيم الجهادية نفسه ، الذى تخصص فى باب من فنون الطب غير معروف فى الكليات الطبية . ولهذا الباب علاقة مباشرة بثروة أهل من يجرى الكشف عليهم من المرشحين للجندية ؛ ويظهر أثر هذا التخصص الطبى فى نتائج الكشف ؛ فجميع أولاد الأعيان تفريهم العلل ، وتقعدهم عن العسكرية شتى العاهات . أما أولاد الإيه ، فكلهم ، بقدرة قادر ، يتمتعون بالصحة والعافية ، لا تعرف العاهات طريقها إلى أكواخهم .

وهى ظاهرة عجيبة ؛ لعلها من أسرار علم الإحصاء . والأعجب أنها تتكرر عاماً بعد عام .

لا شك أنها تكلف الأهلين مالاً له صورة ... وأنها مصدر ثراء للحكماء الذين يضعون علمهم فى خدمة الأصفر الرنان . ويؤسفنى أن أقرر بأن أغلب أولئك الأطباء من الإفرنج ، وما أقل من يمكن أن يترك منهم بين المصريين شيئاً من حسن الأحدوثة وطيب الذكر .

جيش مصر فى عهد محمد على وأبنائه وأحفاده ، لا يجند إلا من بين أولاد الفلاحين المعدمين . فما إن ينتهى شيخ البلد من حشد حشوده ، حتى يسلمها للباشى بوزوق ، وهؤلاء يسوقون المجندين إلى « مصر المحروسة » ، موثقى الأيدى مقيدى الأرجل ، فى حراسة قوية ، وكأنهم من عتاة المجرمين .

كنت أرى جماعاتهم تمر بى كل يوم ، وأنا جالس إلى قهوة تحت دارى بحى الأزبكية ، فى رتل طويل يسوقه الباشى بوزوق إلى القشلاقات سوق السائمة ؛ منظرهم يفتت الأكباد . فقد انتزعوا عنوة من بين أهلهم ، ومن بين أحضان الحرية ؛ يسيرون مثنى مثنى ، مربوطين برقابهم إلى حبل من مسد ، يمتد على طول الرتل . فتية ترتسم على وجوههم وفى أجسامهم العجاف آثار التعب والجوع ،

لا تكاد تستر عورتهم أسمال قذرة كانت فيما مضى هدوماً زرقاء .

وسرب من النساء يتبع قطيع الآدميين : أمهات وأخوات وزوجات يتبعن أعزاءهن من القرية حتى العاصمة . يتحملن ما يتحمل رجالهم من عناء السفر ، ويحاولن ما استطعن أن يخففن عنهم وطأة الجوع والعطش بجرار من الماء ، وقليل من خبز الأذرة والبلح .

أما رعاة هذا القطيع البشرى . فكانوا من فرسان الأرناؤط ، يخفق بالصدى سيوفهم تضرب بطون أفراسهم ، والطبنجات تتخم مناطقهم ، والكرباج مغلول إلى أرساغهم .

وفى القشلاق يتسلمهم « جاويشية العلام » . وهم أضل سبيلا وأسوأ منقلباً .

ومن لغو القول أن أذكر بأن هؤلاء المجندين لا يبلغون شيئاً فى أوطانهم ، لأن الرتب العسكرية من حق المحظوظين . دون قاعدة أو قانون . والغلمان من أبناء الذوات ، وأخدان عباس باشا ، وأصحاب مزاجه . ومحاسيب سعيد باشا ، يلعبون بالرتب العسكرية لعب الأولاد بالأكر .

طبيعى أن يكره المصريون عموماً ، والفلاحون بخاصة . الجهادية اسماً ورسماً ، حتى يهرب من يستطيع الهرب منهم إلى البادية وكهوف الجبال ، ليجتنب تعسه الذل والهوان . مع أن الفلاح المصرى من أرفق الناس بأهله وقريته ، ومن ألصق أهل الأرض تعلقاً بالأرض التى أنبتته . . .

وكيف يمكن أن تحب النساء والأولاد والآباء العجزة هذه الجهادية . تنزع من بينهم القائم على أودهم ، ليغادر ضفاف النيل الحانى . . . ويذهب إلى الحرب أمام قلاع نهر الطونة ؟ »

هذه أقوال شاهد عيان ، أثبتها ونشرها بين الناس . فهل كان صعباً على أساتذتنا فى المدارس أن يذكروا لنا هذه الحقائق . كلما أبديتا تعجلنا ونحن نسمع « ضرب الصوت الحيانى » يزف المجند يوم يستدعى ؟ ربما ! فمن كان يجسر على ذكر الحكام بغير الخير . وكانوا أولياء النعم وخدم « البادشاه » الأعظم ، ظل الله على ضفاف القرن الذهبى فى الأستانة العلية !

° ° °

وقبل خمسين عاماً من كتاب شارل ديدييه . قال اليوزباشي تورمان ، ذلك الشاب الألزاسي الذى كلف من قبل سارى عسكر بونابرته بإقامة التحصينات على طول الساحل المصرى الشمالى ، وعاش فترة فى منطقة برارى الحامول وبلطيم والبرلس ودسوق وفوه [صفحة ١٣٣ من كتابه « بونابرت فى مصر » طبع باريس عام ١٩٠٢] :

« لن تدرك مهما بلغ بك الخيال مدى فقر الفلاح وبؤسه ، فهو لا يكاد يجد ثمن جلباب أزرق يلبسه طوال العام ؛ يعيش مع أهله ومواشيه وكلابه ، فى مساكن هى مباءة الحشرات : يتقشف فى مأكله إلى درجة أن الغذاء اليومى لواحد من أبناء بلادنا على ضفاف الراين قد يكفى عائلة الفلاح المصرى لبضعة أيام . ولست فى هذا متغالياً ، فالبؤس هنا بلغ قراره .

ومع كل هذا ، فإن المصريين أهل مرح وإشراق . يأسرك لطفهم . وإذا تعمقت الملاحظة أدركت رقة شعورهم ، وتوقد ذهنهم الذى يفوق ما نلاحظه فى فلاحينا . أما السمعة اللاصقة بهم فى أوربا عن ضراوتهم ، فإنها أثر من آثار غضباتهم السريعة . فطويتهم سليمة ، وطباعهم كلها دماثة ؛ حتى الحيوانات التى تؤالفهم تبدو كأنها اكتسبت طبيعتهم ؛ فالثور يجر المحراث هادئاً مطيعاً ؛ والطلائق لا تعرف الشراسة ، والثعابين تتسلل تحت حصير الفلاح ، وتعيش معه دون أن تؤذيه . وكلابه قليل منها ما يصاب بالسعار . . . إن الجو المحيط بهؤلاء الناس يفيض بنفحات الحضارة . . . »

فإذا عدنا إلى صاحبنا شارل ديدييه ، فى منتصف القرن التاسع عشر ، وجدناه يردد بعد اليوزباشي تورمان بخمسين عاماً : « ولا يوجد فى أرض الله الواسعة شعب أسلس طبعاً من أبناء الفراعنة هؤلاء . فالمصرى يحتفظ بدماثة طبعه تحت ثيابه العسكرية ، وتظهر حضارته المتأصلة إذا ما قورن بالعسكرى العثمانى ، ذلك الجلف الجافى ، الذى يفاجئك هو وضباطه بفظاظتهم ، على حين أن المصرى يحتفظ ، مجنداً ، بهدوء سريرته ، وكرم طباعه ، وسماحة سجاياه » .

ووصف ديدييه للجندى العثمانى يذكرنى بما قاله ابن إياس أيام الغزو العثمانى ، يصور الجنود العثمانية بالقاهرة :

« وأما عسكر السلطان سليم فكانوا ، جميعاً ، عيونهم دنية ، ونفوسهم قذرة ، يأكلون الأكل وهم راكبون على خيولهم فى الأسواق ؛ وعندهم عفاشة فى أنفسهم زائدة ، وقلة دين ؛ يتجاهرون بشرب الخمر فى الأسواق بين الناس . ولما جاءهم شهر رمضان ، كان غالبهم لا يصوم ولا يصلى فى الجامع ، ولا صلاة الجمعة ، إلا قليلا منهم . ولم يكن عندهم أدب ولا حشمة . وليس لهم نظام يعرف ، لا هم ولا أمراؤهم ولا وزراؤهم وهم همج كالبهائم . »

* * *

أماه ، ويا أمهات الناس ، من يعيد إلى ولدى ؟

ولدى !

مصر والحضارة الغربية

درج الناس على القول بأن مصر فتحت أبوابها للحضارة الغربية بعد غزو الفرنسيس لها فى أواخر القرن الثامن عشر . وبعد تقلد محمد على باشويتها فى أوائل القرن الماضى . وهذا صحيح فى ظاهره ، من ناحية أن بعض المصريين تنبهوا إلى أشكال حضارة غربية غريبة عليهم ، رأوها أثناء إقامة رجال الحملة الفرنسوية بالقاهرة . ولو أن هذه الأشكال . فى بعضها . لم تكن إلا نموذجاً سيئاً لتلك الحضارة . فلسنا بحاجة إلى تصور سلوك الجنود الفرنسيين وضباطهم فى شوارع العاصمة . فهم لم يراعوا حرمة البلد المغلوب ولا احترموا تقاليده . وربما كانت معاقرة الخمر علناً ، ومعاشرة النسوة الخليعات . والسير بهن فى الطرقات . والجلوس معهن فى الحانات . أول ما ظهر لأهل القاهرة من سلوك حملة لواء الحضارة الأوربية . وكانت فتاة مصرية من بيت كريم أول ضحايا التبرج والتفرنج . مما حمل والدها على قتلها بعد أن خرج المعتدون . وسلوك جند الجمهورية الأولى كان تكذيباً صارخاً لادعاء بونابرت الإسلام . أو على الأقل تبجحه فى بلاغاته بأنه جاء لحماية المسلمين من ظلم المماليك . ولقد سئل نابليون فى منفاه بجزيرة سانت هيلانة عن حكاية لبسه العمامة والفراجة ، وادعائه الإسلام ، فقال لمحدثه الكونت ده لاسكازيس : «كانت شعوذة ما بعدها شعوذة ، ولكن من الضرب الرفيع » . وصور فكتور شوفان . فى بحث صغير نشره بدورية محلية فى بلجيكا عام ١٩٠٢ . سخرية المصريين بادعاءات بونابرت وكرههم للفرنسيين . وكذب الأساطير التى أذاعها كتاب الغرب المطنطنون بالملحمة النابليونية ، وأشار إلى بعض قصائد عربية . ألفها متشاعرون سخفاء فى مدح بونابرت ، ومنها قصيدة لأحد الشوام . المسمى نقولا الترك . قدموها لسارى عسكر فى مقابل دراهم معدودة . وندد بفلاكة كاتب ألمانى ادعى أن كلمة Lions ليست غريبة على العرب ، فهم يصورون بونابرت فى صورة بطل خرافى يطير فى السماء ، ثم يهجم على أعدائه هجمات الأسود . واسمه عندهم « أبو ليون » أى «أبو السباع » ! ؟

ويظهر أن المحتل الفرنسى لم يأل جهداً فى أن يعلن عن تقدمه العلمى بكل الوسائل ، ومنها حكاية البالون الذى حاولوا أن يطيروه من ميدان الأزبكية . فإذا به لا يريم . وكانت « كسفة » للفرنسيين ما بعدها كسفة . كما يظن الجبرتى . وفى حكاية أخرى ، جمع بونابرته شيوخ الديوان . ليشاهدوا تجارب المجمع العلمى ، ومنها بعض التجارب « الجلفانية » . يسلط فيها تيار كهربائى على أعصاب حيوانات شبه ميتة — وهى تجربة العصب والعضلة . التى يجريها طلبة الفسيولوجيا بكليات الطب والعلوم — وإذا بعضلاتها تتقلص وتنفرج . وقد احتفظ الشيوخ ، ذوو العمامات الكبيرة واللحى الطويلة . بوقارهم طوال التجارب . وسأل أحدهم برتوليه ، الذى قام بتجربة « إعادة الحياة إلى الأموات » . إن كان فى استطاعته أن يراه الناس فى القاهرة ومراكش فى وقت واحد ؛ فلم يحر برتوليه جواباً بل هز كتفيه ؛ وإذا بالشيخ يقول له : « أرأيت إلى قصور سحرك عن بلوغ المقاصد ؟ »

كل ذلك لم يحل بين المصريين وبين ملاحظة ظواهر أخرى لحضارة الغرب . ومن قبيل هذا إعجاب الشيخ عبد الرحمن الجبرتى بنظم الفرنسيين فى حياتهم ، وطريقة فرض ضرائبهم . وأسلوبهم فى المحاكمات وفى حركاتهم العسكرية . وتنبه الشيخ عبد الرحمن إلى عنايتهم بدراسة الطبيعة المصرية . وشاهد بعينيه وسائلهم لتدوينها وتسجيلها ، وحفظ نماذج من نباتها وحيوانها وتربتها وصخورها ، وكتب فى ذلك صفحة لا تخلو من سذاجة . يصف زيارته لدار المعهد العلمى . واطلاعه على كتبهم وصورهم ومجموعاتهم الحيوانية المحفوظة فى قرطميزات من زجاج .

ثم هو يلاحظ اتجاههم نحو استخدام الظواهر الطبيعية . على أساس من العلم بها ، فيما يوفر على الإنسان مشقة . ويختصر جهداً . ومن أدق ملاحظاته فى رأيى — على بساطتها — تلك التى أبداها بعد أن راقب الجنود الفرنساوية — وهم يزيلون متاريس الثائرين المصريين — يستخدمون عربات يد صغيرة ذات عجلة واحدة فى نقل الدبش والأتربة بدل نقلها بالغلق . فكأن الشيخ عبد الرحمن فهم القيمة العملية للعلم ، واستخدامه للسيطرة على قوى الطبيعة .

كل تلك الملاحظات البسيطة فى ظاهرها ، العميقة فى دلالتها . سوف يلاحظها شيخ آخر بعد موت الجبرتى بسنوات قليلة . وفى عاصمة فرنسا . ولكنها

تتسع هناك لتشمل أهم معالم الحضارة الغربية . ظواهرها وبواطنها . وكان هذا الشيخ الآخر تلميذاً أثيراً عند الشيخ حسن العطار . صديق الجبرتى الحميم . والشيخ حسن هذا هو الذى شجع تلميذه على السفر إلى فرنسا إماماً لأول بعثة علمية أوفدها محمد على إلى أوربا . فلما عاد من بعثته عرض كتابه « تخليص الإبريز فى تلخيص باريز » على أستاذه حسن العطار الذى قدم له وحثه على نشره .

وبعد خروج الفرنسيين . أخذ بعض المماليك فى تقليد النظام العسكرى الفرنسى . أو ما يسميه الجبرتى « مارش وأردبوش » . وعرف أحدهم منذ ذلك الحين باسم حسين بيك الافرنجى . لتماديه فى هذا التقليد . وحدث أن سارت بعض طوابير الجند على طريقة « مارش وأردبوش » فى استعراض بالإسكندرية . وإذا الجند يلحظون على ثغور الأجانب المطلين عليهم من الطيقان علائم الابتسام . فيحسبونها — وقد تكون — سخرية بهم . ويضربون عليهم بالبندق . ويرد عليهم الأجانب بإطلاق النار من النوافذ .

وكما أن السلطان العثمانى محمود — وهو الذى أطلق محمد على اسمه على الترعة القديمةالتى أعاد حفرها فيما بين النيل والإسكندرية . وما زالت تعرف بترعة المحمودية — حاول إدخال نظام أوربا فى الجيش العثمانى . وثار عليه الإنكشارية . فإن محمد على طبق هذا « النظام الجديد » فى مصر . وتذمر منه الجند المدرب على الطريقة القديمة .

ومحمد على كان يكره حتى تلك اللحظة أن يرى المصريين ضمن جنوده . وقد جهز تجريدة لفتح السودان طمعاً فى استجلاب العبيد من جنوبه للاتجار بهم . وإنشاء جيش منهم . أقل كلفةمن جيوش العثمانية . وعندما ثار حماس المصريين وطلبوا الخروج لمحاربة الإنكليز . . . ولكنى أفضل هنا أن نترك الجبرتى يتكلم :

« ولما جاء الخبر بانهزام الإنكليز من رشيد . جاء أيضاً أنهم رجعوا إلى الإسكندرية . واستعدوا استعداداً هائلا . « فأرسلوا لنا النجدة حالا » . فقرأ عمر مكرم الجواب على الناس وحثهم على التأهب والخروج للجهاد وكانوا قبل ذلك قد شرعوا فى حفر الخندق حول القاهرة . ووزعوا حفره على مياسير الناس وأهل الوكائل والخانات . وكذلك أهل بولاق والنصارى فى ديوان المكس .

والأروام والشوام . وشرعوا فى بناء حائط مستدير أسفل قلعة السبتية — فامتثلوا ولبسوا الأسلحة . وجمع إليه طائفة من المغاربة وأتراك خان الخليلى وكثيراً من العدوية [أى عرب بنى عدى] والأسيوطية وأولاد البلد . وركب فى صبحها إلى كتخدابيك ، واستأذنه فى الذهاب ، فلم يرض وقال : « حتى يأتى أفندينا الباشا ويرى رأيه فى ذلك » . ولما وصل محمد على — وكان فى ملوى — خرج عمر مكرم والمحروقى والمشايخ ، ودار بينهم الكلام فى أمر الإنكليز ومحاربتهم ، فقال محمد على : « ليس على رعية البلد خروج ، وإنما عليهم المساعدة بالمال . . . لعلائف العسكر »!

وسيضطر محمد على اضطراراً إلى استخدام المصريين — ولن يأسف على ذلك عندما يتحدث إليه ابنه القائد العام بحسن بلائهم ، وقوة احتمالهم ونظامهم — سيضطر إلى استخدامهم عندما يهب لمعاونة أسياده وأولياء نعمته فى إسطمبول ، ثم لمحاربتهم . وقد اطمأن إلى أن « النظام الجديد » لا قيمة كبيرة فيه للأنفار بغير ضباطهم . وما دام هؤلاء الضباط من الجراكسة والأرنؤد وبعض الفرنجة ، فلا خوف عليه وعلى آله وصحبه ، ولا هم يحزنون .

كان « النظام الجديد » خيراً وبركة على محمد على . وعلى مرتزقته من الضباط غير المصريين . كما كان الباعث الأكبر له على « النهوض بمصر » ، عندما أفهمه مستشاروه الأجانب أن تأليف قوة مصرية محاربة يقتضى إنشاء مدارس الحرب والهندسة والأركان والطب والبيطرة والفنون والصناعات ، ومصانع الأسلحة والذخيرة ، ودار الصناعة والترسانة ، ومصانع النسيج والطرابيش ، والمطبعة لطبع الكتب وغيرها مما تحتاج إليه كل تلك المنشآت .

تلك كانت الخطوات العملية لإدخال الحضارة الأوربية إلى مصر . وكان أهم مظهر لها تغيير فى اللباس ، فخلع محمد على العمامة ولبس الطربوش هو وابنه إبراهيم وأركان حربه ، وضباطه الغرباء ، وعساكره المصريون . والعجيب أن الطربوش الذى كان رمزاً لمجاراة روح العصر والتجديد فى النصف الأول من القرن التاسع عشر ، انتهى أمره إلى أن يصبح ، فى أواخر عهد أسرة محمد على ، عنواناً على الرجعية والتمسك بالتقاليد . وما كانوا يدعونه « القومية » !

وظل ابن البلد نفراً فى الجيش لا يرقى إلا إلى الرتب الصغيرة ، ومستخدماً

لا يرتفع فى الدواوين إلى أعظم من باشكاتب . وظلت الدولة إقطاعاً لمحمد على ولأولاده من بعده . ولأقاربهم وأنسبائهم وألضاشيتهم وقواديهم ورجال أعمالهم من الأرنؤد والجراكسة والعثمانية ومن إليهم ، ومن شر ما كان يلقى به علينا الشرق الأدنى من أشكال وألوان .

بدأ عهد الإصلاحات فى حكم محمد على . وهى إصلاحات هامة ليس من ينكرها . انتظم بها الأمن ، وانحل برم البدو العابثين ، وتلاشت سطوة المماليك وشقت الترع وأنشئت القناطر . ونظم الرى والصرف . على أيدى جهابذة المهندسين والعلماء الأجانب . واستئلفت زراعات جديدة . وأصلحت الأراضى البور ، واختطت الشوارع . وقامت بالقاهرة مصلحة للتنظيم باسم « ديوان القذارة » ، ودبت الحياة فى الإسكندرية بفضل تجديد مينائها وإنشاء ترسانتها . ولم يكن المقصود بهذه الإصلاحات أى خير يصيب الشعب المصرى . فالمصرى لا يملك شيئاً فى بلاده ، حتى ولا حفنة الأذرة التى يصنع منها بتاوه .

ويرد عليك الرجال العمليون قائلين : المهم أن أعمال الإصلاح أجريت . وميناء الإسكندرية فتح للتجارة ، واستتب الأمن ، فجاء الأجانب برءوس أموالهم (؟) أو بعقولهم وعلمهم – يعملون فى خدمة الاقتصاد المصرى . وتمكن بريد الهند من اختزال طريق رأس الرجاء الصالح . بالعبور برًّا من الإسكندرية إلى السويس ، ثم مواصلة السفر بالمراكب إلى الشرق .

مثلما يتحدث إليك المدعو إيفلين بيرنج . وشهرته لورد كرومر . فى كتابه « مصر الحديثة » ، بنعمة الإمبراطورية البريطانية على مصر . وفرضها الحضارة الغربية عليها – دون أن يكون مؤمناً بأن مصر متقبلة لتلك الحضارة – لا لشىء إلا لإشاعة الأمن وتنظيم الاستغلال . فلنصدق هذا الكذاب حتى باب الدار ، أو حتى يطرد من الديار ، ولنؤمن على إصلاحاته ، ولنسلم له بالنجاح فى خلق نوع من الدولة العصرية .

إنما تأمل عدالة التاريخ عندما يزاح الستار . وإذا هذا المتحضر المصلح . ينقلب إلى مجرد وال أجنبى أو باشا من العثمانيين . لقد كشفت مأساة دنشواى عن روح ذلك المستعمر العاتى . إيفلين بيرنج . فهذا المتشدق بالنشر والشعر من الآداب اليونانية

واللاتينية والإنجليزية ، الذى يتمثل بأقوال توكيديد ويوفينال ودرايدن ، المدعى تزعم حركة التحضر والتقدم العمرانى فى مصر ، سرعان ما ينقلب إلى مجرد سفاح سوقى . وباشا عثمانى ، وقائد برابرة فى بلد محتل . أية عدالة تاريخية أبرع وأصدق من أن يختم هذا النصاب حياته « المتحضرة المحضرة » بمقتلة رخيصة ، وظلم رهيب ، أمام قرويين أبرياء ، وقرويات ساذجات ، لم يفعلوا أكثر من الاحتجاج على ضباط بريطانيين يصيدون حمامهم الأليف ، ويصيبونهم برصاصهم الأهوج فى عقر دارهم .

كلا يا سيدى ! لن نجد ، لا فى نهضة محمد على ، ولا فى إصلاحات المدعو كزومر ، ما يمثل شيئاً آخر غير « الحضارة المادية » . ومصيبة مصر أن طرقتها حضارة الغرب على هذا الوجه الأغبر . جاءتها بخيرها فى الصور المادية لهذا الخير ، وحملت إليها شرورها فى الصور الروحية للشر . مصر لم تتطور عقلياً ولا فكرياً فى محاذاة تلك الانقلابات العمرانية التى حققتها حضارة أوربا بمصر منذ عهد محمد على . وما فتئت الصور المادية للحضارة الغربية هى المتغلبة ، تسبق ، بمراحل طويلة ، الحالة العقلية والشعورية لبلاد وادى النيل .

وما أسهل استعارة العنصر المادى فى حضارة أجنبية والاقتباس منها . وأرجو أن نكون تنبهنا إلى هذه الحقيقة الخطيرة ، وهى أن إدراك عنصر واحد من حضارة غريبة عنا ، يجب أن يستدرج عناصرها الأخرى . إذا أريد لتلك الحضارة الأجنبية أن تؤتى ثمارها الثقافية . ولكنا ألبسنا الحضارة الغربية كما يلبس قميص المجانين ، أقحمت علينا من عل فى شكلها المادى ، وفى جبروت أهلها ، وشهوة أطماعهم البشعة .

وبذلك اختلطت علينا سبل الإصلاح الروحى ، وتاهت منا المقومات الحقيقية للنهضة ، كنا إذا آمنا بحضارة الغرب الفكرية والفنية والعلمية ، كمجموع متكامل لا ينفصل عن حضارته المادية ، قام الرجعيون فى وجوهنا ، يتهموننا بمسالأة الغاصبين والمستعمرين ، فلا نحن مستطيعون أن نخطو خطوات التطور الطبيعى للانتفاع الكامل بتلك الحضارة ، ولا الرجعيون قادرون على الاستغناء عن أدواتها وأجهزتها

المادية . وليتنا وقفنا من حضارة أوربا عند علومها وتكنولوجيتها ! ولكن ما كان أسرعنا إلى استعارة مظاهرها البراقة الأخرى . وتطوراتها الدنيوية . دون أن نتطور روحياً فيما يقابل تلك المظاهر . أخذنا بعض العلم وعرفنا بعض تطبيقاته . ونحرص على الاستزادة منه ومنها . ولكنا أيضاً نتفرنج فى اللباس والأثاث والزينة . وفى حفلاتنا ومجتمعاتنا ؛ نرقص فى الكباريه . ونعيش فى شبق الأغانى والأفلام الجنسية والأدب المكشوف . وكأن هذه المظاهر الغربية أصبحت لازمة لنا . لزوم الثلاجة والسيارة والطيارة والراديو تليفزيون . فإذا طالبنا بالاستزادة من فنون الغرب الرفيعة . وفكره وفلسفته . اتهمنا بالتفرنج . والتقليد الأعمى . والاعتداء على الأصالة والقومية . أما القواد . منظم حفلات ملكات الجمال ، وصاحب الماخور المسمى « صندوق الليل » . وملحن الكباريه على إيقاع السامبا والووجى - بوجى ؛ أما المنتج السينمائى الناقل لأحط ما يرمينا به الغرب من أوزار . فليس هم المعتدين على الأصالة والقومية !

إن حديثى فى هذا الكتاب لا شأن له بالحاضر . ولغيرى أن يراقب حاضره . ليقدر إن كنا ما زلنا سادرين فى غفلتنا . أو أن العناصر العاقلة الواعية بدأت تقودنا من ظلام الفلاكة . إلى نور الفن الجميل والفكر العالى . لغيرى أن يفحص ويشخص علامات النقاهة من ذلك المرض الانفصامى العجيب . الذى عانيناه طويلا نتيجة تقبل أدوات الحضارة المادية . وأسوأ مظاهرها الاجتماعية . دون أساسها الفكرى والفنى والروحى .

مصر التى أتحدث عنها حتى الماضى القريب . ما فتئت فى أواخر عصرها الوسيط ، تحاول أن تعود إلى نفسها بعد إغفاءة أهل الرقيم بضواحى إفسوس . رأيتها تحبو ما بين عصرها الوسيط وعصر الإحياء . وكان عهدى بها أن اتخذت الحضارة الحديثة لباساً وزخرفاً مريفاً وطلاوة . من تلك الطلاوات التى حرص أمراء أسرة محمد على أن يلطخوا بها جسم مصر . لتتم لهم صورة مزوقة . تحشرهم فى زمرة الأمراء والملوك المتحضرين . حتى ليتبجح إسماعيل . غير المفترى عليه ، بقالته المشهورة إن بلاده لم تعد من أفريقيا . بل هى قطعة من أوربا .

حركة الإحياء الأوربية . فى القرن الخامس عشر . لم تنبعث من أمثال

هذه الفنجرة والفشخره ؛ إنما جاءت على أثر يقظات فى الفكر والمشاعر . وتخلص من ربقة الغيبيات ، والتزمت فى العقائد ، وتنبه إلى آثار الحضارات الكلاسيكية ، من عمارة ونحت وحفر ، وعلم وأدب وفلسفة . وعندما لم تعثر على بعض الآثار الفكرية فى أصولها القديمة ، التجأت إلى علماء العرب وفلاسفتهم ، ممن تغذوا بتلك الحضارة ، وترجموا لها ، ودرسوها وعلقوا عليها ؛ لم يصدها عن ذلك تعصب صليبى ، ولا ذكريات فتوح الأندلس ، وصقلية ، وغزو جنوبى إيطاليا وفرنسا .

وتحولت تلك الحركة فى بعض البلاد الأوربية من انصياع أعمى للجالس على كرسى بطرس الرسول ، إلى شعوب تستقل فكراً وعقيدة عن روما . بل كانت تحرراً للفكر الإنسانى فى صميم البلاد الكاثوليكية ؛ وانطلق الناس هنا وهناك يناقشون الظواهر الطبيعية ، ويفحصونها ويفسرونها ، دون التزام لما جاء فى كتبهم المقدسة ، أو حتى فى كتب أرسطاطاليس . بل على أساس من الملاحظة المباشرة ، يساعدها الإدراك والتدوين ، والمقارنة والمقابلة ، والقدرة على الانتقال من التفاصيل إلى العموميات . هكذا خرج الأوربيون من عصورهم الوسطى .

أين مصر من كل هذا فى ماضيها القريب ؟ متى بدأ المصريون يشعرون بواجبهم الروحى فى هذا التطور ، ويحسون بأن البقاء على القديم فكرياً هو الركود والموت ؟ وأن عليهم واجب اللحاق بركب الحضارة ، إذا أرادوا أن لا يداسوا كالدواجن ، ويذلوا كالأنعام ؟ ومثل هذا الشعور لا يتأتى إلا عن طريق واحد ، هو طريق التعليم الصادق ، وأقول الصادق لأن التعليم قد يكون هو أيضاً مجرد دهان وقشرة على سطح الفكر ، ودغدغة خسيسة للمشاعر .

ولو أن بعثات محمد على اتجهت إلى الإحياء ، أى لو أنها كانت بعثات فكرية علمية ، لجاءت بخير كثير ، وبأسرع مما آتت . ولكن محمد على لم يوفد « الأفندية » إلا ليتعلموا حرفاً ومهناً تتصل بشئون الحرب . ومع هذا فإن تلك البعثات تركت فى أغلبهم أثراً عميقاً ، وساعدتهم على التحرر ، ووضعت أقدامهم على أولى درجات السلم الحضارى . ولو كان « الأفندية » مصريين ، لاستطاعوا ينقلأنوا إلى مصر بعض لقاح الثقافة . ولكنهم ، فى أغلبهم ، عادوا إلى بيئاتهم

الأرستقراطية التركية ، وعاشوا حياتهم بمعزل عن الشعب .

لقد استعرضت تاريخ البعثات التى أوفدها محمد على وخلفاؤه الأقربون ، وفيها بعثات صناع . وضباط برية وبحرية . وهندسة عسكرية ، وطب وبيطرة وصيدلة وكيمياء صناعية ؛ والقليل منها اتجه لدراسة الرياضة والفلك والجغرافيا ، وواحد من كل تلك البعثات كان من حظ مصر أن يوفد لا ليتعلم شيئاً ، بل لمجرد أن يؤم « الأفندية » فى الصلاة ، فيتعلم الشيخ الفرنسية ويحذقها . ويقوم على رأس حركة الترجمة فى القرن التاسع عشر . من هنا يبدأ تطور الفكر المصرى حقًّا . فالشيخ رفاعة رافع الطهطاوى هو ظاهرته الكبرى ، الجدير حقًّا بلقب « باعث النهضة المصرية » .

هذا المجاور المتحفظ . المصر على الإسجاع . إلا حينما يكتب فيما لا يحتمل التلكؤ الذى تقتضيه القيود اللفظية ومحسنات البديع ، وحينما كانت الأفكار فى نظره أهم من الاحتفال باللفظ ؛ هذا المجاور ، لم تمنعه بيئته المحافظة الأولى من أن يوسع أفقه . ويلاحظ الناس والوقائع فى أوربا ، ويطالع ويترجم ما يختار من مطالعاته . ليفيد به أهل وطنه . يعلق على الحوادث ، ويفصح عن آماله فى مستقبل بلاده . بنوع من التورية والاختباء خلف ما يسرد من مواعظ . ويستشهد به من شعر . إنه ليترجم كتاب مونتسيكو عن تدهور الحضارة الرومانية ، ولا أشك فى أنه قرأ كتاب مونتسيكو الأشهر وهو « روح الشرائع » . ولكنه لم يجسر على ترجمته . خشية أن تكشف الترجمة عما يجول بخاطره من كره للاستبداد ومقت للاستعباد . ثم هو يترجم حياة بطرس الأكبر « باعث النهضة الروسية فى اتجاه الغرب » .

عاد رفاعة إلى وطنه ، سنة ١٨٣١ . زاخر النفس بمعانى حياة جديدة ، متحفزاً لإصلاح المجتمع المصرى . بتعليم الشعب وتنبيه الأذهان . عاد ليدرس وينشئ المدارس ويصنع من تلاميذه رواداً للجيل الصاعد . راح يستعرض كتب الثقافة الغربية ، ويترجم ، ويتخرج على يديه المترجمون ، يتولون معه ، وبإشرافه . ومن بعده . نقل تلك الكنوز المكشوفة . مضى يكتب ويخطب وينشر المجلدات والصحف . يبسط العلوم ويعالج شئون التربية والسياسة والاقتصاد ، يحاول هدم

الآراء الفاسدة . ويبذر بذور التقدم . يبصر أمته بروعة ماضيها . وخصب حاضرها ، ورجاء مستقبلها . لا يكل فى ذلك نشاطه ، ولا تثنيه عنه الحدود والقيود ، ولا نفى عباس باشا له إلى السودان . إنه رائد عملاق ، لولاه ، ولولا الفريق الذى رباه ، لظلت مصر متخلفة عن حضارة الغرب نصف قرن آخر على الأقل .

رحلة رفاعة الطهطاوى إلى باريس ، كانت أول اتصال روحى بالغرب أخصبت به عقول أهل مصر . « وذلك عندما تفتحت عينا رفاعة على بلاد الإفرنج . وشعر الفتى الصعيدى بمكانه من الدنيا والتاريخ . وأدرك روعة الدور الذى ينتظره فى بلاده بعد أوبته » .

بعثات عسكرية أو هندسية أو علمية أو طبية . أعضاؤها من المتمصرين أو من المصريين . لاشك فى أن تلك البعثات قد وهبت مصر رفاعة رافع الطهطاوى . كما وهبتها على مبارك ، ومحمود الفلكى ، ونخبة من « الحكماء والجرايحية والكحالين » .

وللباحث فى تطور المجتمع المصرى أن يدرس أثر أولئك الرواد العظماء . وأن يتعمق الدراسة وهو يترجم لهم . بدل أن يضيع وقته وجهده فى تحليل حياة محمد على وسعيد وإسماعيل ، مدحاً أو قدحاً . لأن القليل الذى عرفته مصر . فتحولت عن غفلتها . جاء بتفكير أولئك الفلاحين الذين أوفدوا إلى فرنسا فى القرن التاسع عشر . ونتيجة تأثرهم العميق بما شاهدوه وخبروه من آثار الحضارة الأوربية .

وما أطول الطريق برغم هذا . وما أبعد الشقة! فقد أصابنا الاحتلال البريطانى بنكسة عقلية وخلقية . عندما أوقف تلك البعثات . ثم حولها إلى قلة — كقطرات الماء — توفد إلى كليات ثانوية من أمثال كلية بروورود . التى اشتهرت فى تاريخنا الثقافى بثورة أعضاء بعثة عليها . وكان محجوراً على المصريين أن يوفدوا على حساب الدولة إلا إلى إنجلترا ، ومحجوراً عليهم أن يحصلوا فيها من الدرجات الجامعية ما قد يضعهم على قدر من المساواة العلمية بأترابهم البريطانيين ، الذين يجيئون إلى مصر غلماناً ، ليعينوا لها رؤساء وحكاماً .

وجاءت ثورة ١٩١٩ تصحح ذلك ، وعادت البعثات ترد موارد العلم والثقافة والفن حيثما وجدت فى بلاد الغرب .. وأنشئت جامعتنا الكبرى ، حصناً للحرية

الفكرية ومنارة للعرفان . فإذا الرجعية تتربص بها ، وتتجمع تحت راية « منشئ الجامعة » ، الملك المستبد ، وتعمل على تطفيش الشباب « روحياً » ، وإبعاده عن معين الحضارة الحقة ، بحجة « المحافظة على تراثنا وقوميتنا » . واشتهر وزير للمعارف إذ ذاك باسم وزير « التقاليد » ، فى وقت اندفعت فيه البلاد اندفاعاً فى طريق التطور المادى ، فلم تعرف إلا قليلا من معنى الحضارة : فهى انطلاق الفكر وصدق الشعور ، على أساس من الخلق القويم والثقافة . فالحضارة الأصيلة لا تنبت إلا فى حقل النفوس المهذبة الأبية ، ولا تنبثق إلا من صميم الروح المطلق .

كان الشباب يتخرج موزعاً بين تقاليد ورواسب وغيبيات راسخة ، وبين علم وفن وحضارة لازمة لرقيه مادياً وروحياً . فهو مقيد موثق الأقدام ، يخطو فى حياته خطوات متثاقلة ، لأن سلاسل الرجعية توقر أقدامه ، وقد ترخى له القيود إلى مدى ، لتجذبه كلما أحست فى حركاته من ضعف ، وفى مقاومته من اضمحلال .

لقد عرفت كل هذا فى تربيتى وتعليمى ، وراقبت كل هذا فى تربية طلبتى بالجامعة وتعليمهم . قد ينجح الشاب فى كسر قيوده وفك عقاله ، ولكن ثمن هذا الفكاك والانطلاق ، يكون فى الغالب على حساب الأخلاق . لأن الشاب لم يحصن الحصانة الكافية بشىء أهم من الأوامر والنواهى ، وأهم من العلم والمعرفة ، ألا وهو الثقافة ، بكل ما تحوى هذه الكلمة من تفكير صادق ، وإحساس سليم بشتى ما تنشئه العقول الجبارة ، والمشاعر المرهفة شرقاً وغرباً .

ما هى الحضارة إذن إن لم تكن فى هذا التفكير الصادق والإحساس السليم ؟ يندفع الإنسان بقوتهما فى رحاب الحياة الحرة ، لا تتفاعل فى نفسه رواسب الخزعبلات ، مع رحيق العلم والتحصيل ، والتمكن من المعارف النافعة .